الفصل الثامن عشر

زنازين شمال

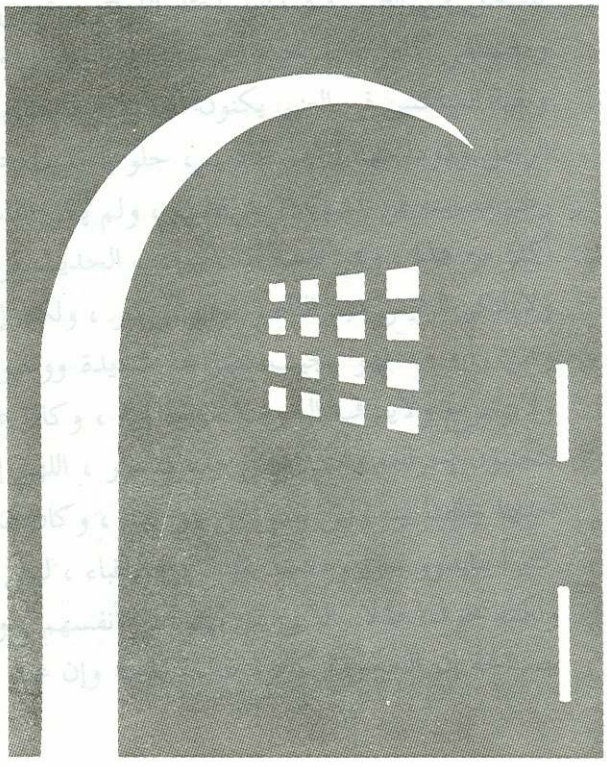

كانوا ينظرون إلى أصحاب عنبر ١٢ نظرة مليئة بالشك والريبة ، ويقولون إن هؤلاء المعتقلين المقيمين فى العنبر هم أهل الرأى، وهم الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها إن خرجوا من المعتقل ، فهم أهل البقاء ، وإن طال الزمن وقد تقوم القيامة عليهم فى معتقل أبى زعبل ، وإن أصحاب العنابر الأخرى سوف يخرجون يوما ، أما عنبر « الزعماء » فلن يخرجوا أبدا .

وكان الأمر على مرارته البالغة يثير السخرية الشديدة ، فالواقع يقول إن الستة والثلاثين معتقلاً المجتمعين فى العنبر لايربطهم رباط تنظيمى واحد ، فهم متعددو المشارب والنزعات ، وكل منهم عالم وحده ونسيج متفرد ، هذا إذا استثنينا بطبيعة الحال مجموعة الأستاذ محمد قطب ، وهى تتشكل فى العنبر منه وابن اخته الدكتور عزمى بكر شافع ومصطفى كامل والمرحوم أحمد نصير المحامى من أسيوط ، وبقية الساكنين فى العنبر يكنون له الود والاحترام ، فقد كان الرجل ودوداً مهذباً جم الأدب ، حلو الحديث عذب النفس رغم مصيبته فى الشهيد سيد قطب ، ولم يكن الناس معه على أكثر من هذا ، وهو نفسه كان يتجنب الحديث فى السياسة ، ولايذكر الرئيس عبد الناصر بخير أو شر ، ولكنه إذا سئل عنه وعن رأيه فيه فهو يجيب بصراحة شديدة ووضوح كامل ، ولايتحرج ولايعرف الخوف طريقه إليه ، وكان عقلاء الناس يتجنبون إحراجه والكلام فى هذه الأمور ، اللهم إلا إذا كان حديثا خاصا بينه وبين بعض من يثق بهم ، وكان هذا الحديث كثيراً مايدور سرا وهمسا بعيدا عن الرقباء ، ليس خوفا عليه ولكنه خوف هؤلاء الذين يثق بهم على أنفسهم ، وكان يقول بصراحة إن الحكومة كافرة ظالمة باغية وإن عبد الناصر هو

الطاغوت الأكبر وهو من عوامل فساد أمة العرب والمسلمين . ولم يكن يرى التنظيم إلا وسيلة سهلة لاصطياد الناس وضرب الشباب ، ولكن على كل من يؤمن بلا إله إلا الله وأن محمد رسول الله أن يكون صادقاً مع نفسه وعلى استعداد كامل للموت في سبيلها ، وأن الشهادة هى السبيل الوحيد ليغير الناس مابأنفسهم فيغير الله سبحانه وتعالى مابهم . وأن الأمة الإسلامية لن ينصلح حالها حتى يبرز فيها قوم يحبون الموت ويتشوقون إلى الجنة ، وأن يكون موتهم صريحاً واضحاً من أجل لا إله إلا الله محمد رسول الله ، بلا تنظيم يمسك به وتنفرط حباته فى ظل نظام بوليسى عتيد ، قد جعل التجسس شعاره ، نظام قد حول الناس جميعاً إلى كتبة تقارير ، كل الناس – هكذا كان يقول – حتى الوزراء والأعيان والكبراء ، وكان قوله ظاهره البساطة فى معانيه ، ولكن مراميه كانت بعيدة الهدف ، بليغة الأثر والمرام ، لم يكن الرجل ينهى عن التنظيم ، بل كان يدعو إلى ثورة إسلامية شاملة ، ممثلة فى حرص الناس على الشهادة ، فهم ليسوا بقادرين على الشرطة والجيش ولكنهم يستطيعون الموت ، فى بساطة وقوة وشرف حرصا على الدين . وهو سبيل الأمم الوحيد للتغير وللخروج من دائرة العبودية والهوان . وكنا نسمع ونهز رءوسنا ، فالموافقة والمعارضة لاتفيد ، ولعلها تضر بالتأكيد . ولكن الصدور تغلى مما تراه من الحق ، ومن تناقضه مع الواقع المهين الذي نعيشه كل يوم تحت رقابة صارمة وأوهام لاندرى أولها من آخرها .

وكان المدربون يقترحون إرسال برقية تأييد للرئيس عبد الناصر فى مناسبة ما ، وربما كان يوحى لهم بمثل هذه الاقتراحات ليروا أثر ذلك على الناس ، وكان الناس يسارعون فى التوقيع بأسمائهم على مثل هذه البرقيات تجنبا للأذى

وتحسبا مما قد تأتى به الأيام . وكان محمد قطب يرفض التوقيع على مثل هذه البرقيات رفضا تاماً ، هو ومن معه ، وآخرون ليسوا معه بالمعنى الذى تعرفه الأجهزة .

وكان بعض العقلاء يقولون إن توقيعاً مثل هذا لن يضر المرء فى دينه أو شرفه ، فالتوقيع لايعنى أن النفس مجبرة به ، ولكننا نبش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم ، والتقية واجبة ، وإهدار النفس ليس من الدين فى شىء ، فالحكومة كافرة ظالمة باغية ليس فى هذا شك ، وهى حمقاء أيضاً عندما تطلب منا التوقيع على مثل هذه الأوراق وتصدقنا وتظن أننا لانخدعها .

وكان الذين يرفضون التأييد ولايوقعون على مثل هذه البرقيات لايطلبون من غيرهم أن يسلكوا سلوكهم على عكس الذين يؤيدون ويوقعون ، فهؤلاء كانوا حريصين على أن يفعل الجميع مثلهم وينجون بهذا من تأنيب داخلى يعذب النفس ، ويقولون لو أيدنا جميعا فلن ندع للحكومة فرصة تدخل فيها بيننا ، ومن ثم فهم مجبورون على تركنا وشأننا ، ولايعودون إلى إيقاع العداوة والبغضاء بيننا ، وسيكون المعتقل حرما آمنا يتخطف الناس من حوله ، ويوما يأتى لعله ليس ببعيد تنزاح فيه الغمة عن الأمة ونخرج إلى بيوتنا وأهلينا .

وكان كل فى واديه ، لاهذا يسمع لذاك ، ولاذاك يسمع لهذا ، والأمور تجرى على الناس بقدر يعلمه الله ، ومقادير قد سطرت علما فى الأزل الأبدى ، والناس فى شغل شاغل بأمور قد حسمت علما وسطراً ، والغيب يدور فى نفس الدورة خارج كل تصور أو خيال بشرى ، وهى حلقات لاانفصال لها ، وبها بيان كل شىء ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون .

كان محمد قطب يتكلم فى أوقات صفوة عن الأدب والشعر ومدارس النقد ، ويعقد المقارنات بين شوقى وحافظ ، أو بين شوقى والعقاد ، وكان غزير الثقافة ، ويتمتع بخفة دم نادرة ، وهو حاضر النكتة والبديهة ، ولم يكن أيامها يغضب ممن يعارضه الرأى ، بل يكتفى بابتسامة سمحة متمتما :

– هذا هو رأيى ، فإن جاء خير منه قبلناه .

متمثلاً فى ذلك قول الإمام أبى حنيفة النعمان .

وكانوا يسمحون لنا بالخروج نصف ساعة بين اليوم والآخر إلى خارج مبنى المعتقل ، بينما الأسوار عليها الأبراج وبها الحرس بالسلاح ، وبين مبنى المعتقل الرمادى اللون الراقد فى مروج أبى زعبل ، وزيدت النصف ساعة إلى ساعة ، و كانت تتم فى العادة بعد الظهر ، وبتدخل أهل الحنكة والسياسة والمال زيدت إلى أكثر من ساعة ، وكان التوقيت يتم فى العادة حسب الظروف . وعندما اعتاد الناس هذه الطوابير ، فقد كانوا يطلقون عليها طابور فسحة ، أصبحت تجد من يلعب كرة القدم ، أو كرة الشبكة ، أو يحملون حديدا قد صبوه من أسمنت مسلح ، ويدربون بهذا عضلاتهم ، وهم يحاولون تجنب الترهل ، بعد شهور « التخزين » فى العنابر .

وكان كل المعتقل ينزل فى وقت وعنبر ١٢ ينزل فى وقت آخر ، يخشون بهذا عدوى الأفكار ونقل المفاهيم .

وعندما يأتى دور عنبر ١٢ ينزلون ، ويتجه من يهتم بلعب الكرة إلى ملعبه ، ومن يحمل الحديد الأسمنتى إلى ذلك « البار » العمومى الموجود فى فناء المكان ، والباقون يكتفون

برياضة المشى فى دائرة طويلة ، وهم يتحدثون ويتحدثون ، وكان الأستاذ محمد قطب من أقطاب رياضة المشى ، فهو يسير مثيرا غبارا من قدميه وأقدام أصحابه، ولاشك أنه كان يثير فى نفوسهم نوازع أخرى عجيبة ، فكنت ترى طابورهم – إن جاز التعبير – رجلاً واحداً يتكلم والكل حوله فى صمت ، وهو يحرك إصبعه ويده لتأكيد كلامه وتثبيت معانيه ، وعند العودة إلى العنبر يتذكرون وقائع ذلك الطابور البهيج .

وكان الأستاذ شمس الدين الشناوى من حملة الأثقال ، وهو يلعب الكرة أيضا ، ويقسم وقت الطابور بين هذا وذاك . وكان شاعرا يحفظ الشعر ويقرضه أيضا ، وكان هو الآخر جم الأدب شديد التواضع ، بشوشا رغم شوقه الذى لايفتأ يعبر عنه إلى أطفاله ، وإن لم تخنى الذاكرة فقد كانت أسماؤهم عمر ، وفائقة ، ونائلة ، فهو يذكرهم بالنهار ، وتداعبه طيوفهم بالليل ويستعين على هذا كله بالصبر والصلاة .

وكانت تحدث المساجلات الشعرية بينه وبين الأستاذ محمد قطب ، وكنت أشترك فيها ، وكان من عادة الأستاذ محمد قطب أن يقول شعراً ظريفاً مسجلا فيه أحداث اليوم والليلة ، ويتم ذلك عقب العودة من طابور الفسحة . وقد غاب عنى معظم هذا الشعر ، وكم وددت لو كان قد سجل أو كتبه واحد ممن اهتموا بمثل هذه الأمور ، ولكنى أذكر واحدة وربما أكثر قليلاً . نزلنا إلى طابور الفسحة ، ولم يلعب الأستاذ شمس الشناوى كعادته ، بل جلس فى ناحية مهموماً يفكر فى أولاده ، وكانت هذه مسألة طبيعية تحدث للكثيرين وله بصفة خاصة ، ومازلنا به حتى قام إلى اللعب قبل أن ينتهى وقت الطابور ، لعله ينسى مابه من شجو وحزن .

وعندما عدنا إلى العنبر أراد محمد قطب أن يخفف عنه بطريقته فقال :

أراك اليوم لا « شايل » حديد
ولا بوكس ولا كرة شراب
فقل ياسمى الشمس قل لى
عزوف منك أم ولى الشباب

وانفرجت أسارير الأستاذ شمس الدين الشناوى وشحذ قريحته وانبرى يرد على الأستاذ محمد قطب من بديهته :

لعبت رياضتى وخلصت منها
وأنت تلف عفرك التراب
ويمكن شفتنى لكن بعيز
بلا نضارة شيش كباب

وكانت هذه المساجلات كثيرة وطريفة ومتنوعة ، فمثلا كان للأستاذ شمس الشناوى غرائب كثيرة ، ففى وسط هذا الأتون الملتهب كان يمكن مثلا أن يأتى لى بسيجارة أمريكية خلسة ، وكان لايدخن ، فأسأله من أين يأتى بها ، فيقول « دخّن ولا تسل » ، وكانت شركة بسكو مصر تنتج نوعا فاخرا من البسكوت لم يكن يأكله إلا الملوك فى زعمنا لفخامته ، وقد سمته « رمسيس » تيمنا بالرئيس عبد الناصر فهو ورمسيس صنوان فى رأيهم فقلت فى « الشغتية الكبرى » – وهى قصيدة كنت قد ألفتها ونسيتها إلا قليلاً أسجل فيها الأحداث – :

على أعتاب نائلة سؤالى
وفائقة شددت لها رحالى

هما النجمان مالهما شبيه
عدا شمس أبيهما ذى المعالى
« أبو الخطاب » يحرس فى حماهم
إلى أن تأذن الدنيا بحال
ويكتمل الجميع بشمل بيت
و « شمس » ربه والدهر خالى

وكان ذلك فى أبيات كثيرة من الشعر الذى قد يسمى « بالحلمنتيشى » ومنها :

وعنبرنا به عدد كبير
من « الزعماء » والأسر العوالى
ثلاثونا تجدهم بعد ست
لهم صبر على سود الليالى

ثم تناولت كل واحد منهم فى أبيات فى ترتيب وتسلسل وكم يحزننى أننى قد نسيتها ، ليس حزنا على الشعر ، ولكن على الأحداث التى سجلت فيه . وكان للشيخ عبد الفتاح المحروقى طفلة صغيرة اسمها عزة ، قد حصل على صورتها بطريقة لا أذكرها ، وعلقها بجانب « نمرته » ويحييها كل صباح ومساء ، وكان يسكن بجواره الدكتور عبد العال محمد عبد الواحد ، وكان يطلب زواجها كلما رأى الرجل يحيى صورتها ويحدثها ، وكان الدكتور عبد العال حياه الله يسأسىء ويفأفىء أحيانا فى الكلام وقلت فى تسجيل قصته ، وهو ما أذكره : وعزة زهرة الأزهار طراً

وفاتنة القلوب بلا جدال
وعبد العال يصرع فى هواها
ويبدو واجما بادى الهزال
تسأسىء عزة لبكورِسنٍّ
وعبد العال « سئساء » الرجال

ولعل من يقرأ هذه السطور يظن أننا كنا نعيش حياة رغدة هنية ، وليس أمامنا غير قرض الشعر والمساجلات الأدبية ، وأن البال خال والدنيا آمنة مطمئنة ، والأيام تسير بنا رخاء ، ولم يكن الأمر على هذا النحو بطبيعة الحال ، ولكنها محاولة للابتسام من خلال الضباب الكثيف الذى كان يسيطر على المكان . كانت الحياة صعبة وكنا نحاول البسمة بين الحين والآخر ، خوفا من انهيارنا أو انهيار بعض من معنا . وربما كانت رغبة خفية فى التماسك تجاه الآخرين ، من الجانب الآخر . وهذه أمور تبين كم كانت الناس متحابة ومتآلفة ، وكيف أن بين الجميع علاقات إنسانية طيبة قد غذاها الدين وأكدها الإسلام ، كانت الحكومة تمنع التكافل بين المعتقلين وهم يصرون عليه ولو سرا أو من وراء حجاب ، كانوا يدعونهم إلى التفكك وهم يترابطون .

وكان فريق من المُدَرَّبين يرددون أن سبب إبقائنا فى المعتقل هم أصحاب عنبر ١٢ وأن الطريقة المثلى فى الخلاص من هذا العذاب هو مزيد من تأييد الحكومة ، على الأقل تتحرك الأمور قليلاً ويفرج عن البعض .

وكان فريق من العقلاء يردون بأن الحكومة لاتهتم بهذا كله وأنها لاتفكر فى الإفراج عن أحد فالحالة فى خارج المعتقل سيئة جدا ، والحكومة تنفق مليون جنيه يوميا فى حرب اليمن ، وتردد أنها قد باعت أرصدة الذهب ، والأسعار فى زيادة ، والغلاء يشمل الفقير والغنى ، والناس غير قادرين على تحمل أعباء الحياة ، وليس من العقل أن تفرج الحكومة وهى طاغية مستبدة عن فريق من الموتورين ، ليشيعوا البلبلة

فى نفوس الناس ، فى وقت هى فيه أكثر ماتكون حاجة إلى الراحة والاستقرار ، ولكن إن أيدتم وأرسلتم برقياتكم فلا يمكننا أن نتخلف ، ولكننا ننصح بعدم إشاعة هذا بين الناس ويكفى ماهم فيه .

وكان من عقلاء عنبر ١٢ المستشار محمد المأمون الهضيبى ، وكان ينصح بعدم إثارة هذه المسائل فهى شائكة جدا ، وتعرض الناس جميعا لضغط وخطر هم فى غنى عنه ، فلا داعى مطلقا لإرسال برقيات التأييد لأنها تحرج قوما يكفى مابهم من سجن وأذى ، فيسأله واحد :

– وماذا تفعل إن بدأت موجة التأييدات وأرسلت البرقيات ؟ .

ويرد المستشار فى بساطة وحسم :

– لن أفعل بالتأكيد .

ويعاوده السائل فى إلحاح :

– هو تأييد كاذب لا معنى له ، نحن جميعا نمقت جمال عبد الناصر ، ولكن لابد من المراوغة مع هؤلاء الذئاب .

ويرد المأمون الهضيبى وقد ارتفع صوته قليلاً :

تريدون منى أن أرسل برقية أؤيد فيها جمال عبد الناصر ؟ أؤيده فى أى شىء على وجه التحديد ؟ فى ضربه للحركة الإسلامية ؟ فى إعدامه لسيد قطب وعبد الفتاح إسماعيل ويوسف هواش ومن قبلهم عبد القادر عوده وإبراهيم الطيب ويوسف طلعت وغيرهم وغيرهم ؟ تريدون منى أن أؤيد من وضع أسرتى كلها فى السجن رجالاً ونساءً ؟ تريدون منى

أن أخادعه ؟ لا والله لن يكون أبداً ، والسجن أحب إلىَّ مما تدعونني إليه . وينفض الجمع يائسا فقد بدأت موجة التأييدات .

وكانت هذه التأييدات من الأمور العادية التى تحدث بين الحين والآخر ، ولاتهتم بها الحكومة ممثلة فى إدارة المعتقل كثيرا ، ولكنها لعبة تستهوى عبد العال سلومة قائد المعتقل أكثر من أى شخص آخر . فتأتى المناسبة ، أية مناسبة ، وتكتب البرقية ويمر المدربون على العنابر يجمعون التوقيعات ، وهى تكتب بطريقة تلقائية آلية ، ويتوقف المدربون عند بعض الأسماء التى اعتادت عدم التوقيع ، وذلك ليتأكدوا من نيتهم فى عدم التوقيع ، وكانت هناك بعض الشخصيات لاتسأل عن هذا أبدا ، فموقفهم معروف سلفا ، مثل الأستاذ محمد قطب مثلاً . وتكثر الأسئلة وترتفع الضجة عندما يدخل دائرة المعارضين شخص جديد ، بمعنى أن يعلن واحد قد اعتاد التأييد أنه لن يؤيد الحكومة مرة أخرى .

وكانت المسألة كما قلت من الأمور العادية التى تحدث كل حين قريب ، ولكن الأمر قد اختلف تماما عندما أعلن عبد الناصر غلق خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية وتعاقبت الأحداث يوما بعد يوم ، وصار شبح الحرب واقعاً مراً يراه الجميع ، وكان فى المعتقل صفوة المجتمع ممن يكتبون ويقرءون ويفهمون .

وبدأ المدربون يجمعون التأييدات للرئيس فى موقفه البطولى العظيم فى زعمهم . وهذه المرة حرص الجميع على التوقيع لأنها الحرب لا محالة ، وعدم التأييد يمكن أن يفسر بأنه خيانة عظمى من حكومة لاتدرك واقعها ، ولا تفهم غير

عظمة رئيسها ، وامتنع عن التأييد والتوقيع واحد وثلاثون شخصا وهم كالتالى :

١ – محمد قطب .

٢ – المأمون الهضيبى .

٣ – أحمد نصير .

٤ – عزمى بكر .

٥ – مصطفى كامل .

٦ – السـيد عيـد .

٧ – شكرى مصطفى .

٨ – عصمت بدوى .

٩ – محمود حلمى .

١٠ – فاروق عباس .

١١ – محمود الجوهرى .

١٢ – على حمدى .

١٣ – جمال متولى .

١٤ – محمد حسن .

١٥ – عبد العال محمد عبد الواحد .

١٦ – د. يحيى .

١٧ – الشيخ على إسماعيل .

١٨ – حامد المصرى .

١٩ – عز الدين عبد المنعم .

٢٠ – محمود متولى .

٢١ – الشيخ محمد صقر .

٢٢ – د. مجد الدين صادق .

٢٣ – كمال الغايش .

٢٤ – حسن عطيـة .

٢٥ – محمد عمـارة .

٢٦ – محمود شكرى .

٢٧ – محمد رشـاد .

٢٨ – حسن شـرابى .

٢٩ – محمد عبد العال أبو مدينة .

٣٠ – الدسوقى ضيف .

٣١ – محمد حمودة الصعيدى .

وذهبت البرقيات إلى قائد المعتقل وقد خلت من الأسماء السابقة ، وأراد الرجل أن يعطى فرصة للأخذ والرد وإحداث فتنة ، فطلب من مساعديه ، وكانوا من بعض المعتقلين الذين يقومون على إدارة المعتقل من الناحية المعيشية أن يحاولوا محاولة أخرى مع هؤلاء الذين رفضوا التأييد ، لأن هذه المرة تختلف عن سائر المرات . واستمات الناس فى إقناع هؤلاء بالتأييد حرصاً عليهم وخوفا من أن يصيبهم طائف من خطر . ورفض الجميع رفضاً باتاً . وكان شقيقى محمود حلمى من هؤلاء كما ذكرت ، وكلمته فى التأييد واستعنت عليه بآخرين أذكر منهم حسن حافظ الفقى وسمير الهضيبى ولكنه رفض رفضاً باتاً .

وأذكر أننى تكلمت فى هذا اليوم مع الأستاذ محمد قطب ، وأذكر أنه كان حليما لم ينفد صبره أثناء الحديث المستفز ، فقد كنت فى الواقع أخشى عليه البطش هو ومن معه :

– ليس هذا من البطولة فى شىء .

– ومن قال لك إننا نبحث عن بطولات ؟ .

– ولكن .. هؤلاء الشباب الذين معك ؟ .

– ليس معى أحد ، كل نفس بما كسبت رهينة .

– صدقنى كلنا جميعا نمقت الحكومة ونعرف خطرها على الإسلام والمسلمين ، ونعرف أنها لاتعمل لصالح مصر ولا للعرب، وأنها تسير بالبلاد والعباد إلى خراب لايعرف مداه إلا الله سبحانه وتعالى ، وسوف يأتيك صدق ما أقول بعد سنين إن أحيانا الله .

ونظر الرجل إلىَّ فى دهشة شديدة وقال فى هدوء :

– ورغم كل ما قلت تريدنا أن نؤيدها ؟ .

وخجلت من الرجل ولم أكمل معه الحوار ، ولكنه عاودنى بنظرته الودود المتلطفة :

– صدقنى أنا أفهم مبررات شاب مثلك – كنت أيامها شابا – وأعذرك ، وأعذر أيضا بعض الآخرين ، ولا أطلب منكم أن تقفوا الموقف الذى أقفه الآن ، ولم أطلبه من واحد من الذين امتنعوا ، بل إنى فوجئت ببعض الأسماء ، ربما يكون صعبا علينا أن نأخذ حقنا فى الحرية ، ولكن لعلنا نحصل على حقنا فى الشهادة . ونظرت للرجل وقد سحرنى هدوؤه ووقاره مع ابتسامته التى لاتغادر وجهه فى الحديث ،

وكان نحيلا شاحبا نبيلا ، تلمع عيناه من خلف نظارة طبية قد طال العهد على إطارها المعدنى فهو يمسكها بصعوبة ولايستطيع تجديدها .

وتمتمت فى خوف :

– أنت تتكلم عن الشهادة . أتراهم .. .

ولم أكمل سؤالى فالطمأنينة تملأ وجه الرجل وهو يقاطعنى باسما :

– أتراهم يتورعون ؟

والتفت ناحية فوجدت شكرى مصطفى يمرح ويمزح مع محمود الجوهرى وكلاهما قد أعلن عدم التأييد ، وهما قد فعلا هذا للمرة الأولى ، ولم يكن فى بال أحد أن يمتنع هذان عن التأييد ، محمود الجوهرى مهندس شاب عبقرى ، لايهتم كثيراً بالسياسة ولايتكلم فى هذه الموضوعات بالمرة ليس عن خوف ولكن عن عدم اهتمام جدى بهذه الشئون ، وكان يوقع عندما يطلبون منه ، ولكنه قد امتنع هذه المرة ، لماذا ؟ لست أدرى على وجه التحديد . لم تكن علاقته وثيقة بالأستاذ محمد قطب فنقول إن تأثيره قد انتقل إليه ، كانت علاقته به عادية جدا مثل أى شخص فى العنبر ، وربما أقل من الآخرين ، ورغم هذا فقد رفض رفضا قاطعا لايقبل المناقشة مسألة تأييد الحكومة وأن نجعل الأمـور تجرى علـى خـير وقال يومها ساخرا :

– هى تجرى على خير . ماذا سيفعلون بنا أكثر مما فعلوا ؟

وكان امتناع شكرى مصطفى عن التأييد مثار دهشتى البالغة ، فهذا الشاب الطالب فى كلية الزراعة جامعة أسيوط

قد جاء صدفة إلى السجن الحربى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وعذب مثل الآخرين ، وكنت أراه أيام الحربى لماما ومن بعيد فلم نتجاور فى زنزانة ، ولم يشملنا تحقيق واحد ، ولكنه كان يلفت انتباهى بكونه واحدا من أصغر المعتقلين سنا . لم أقترب منه إلا بعد إعادة التصنيف عقب توعية نوفمبر وفوجئت به فى عنبر الزعماء وهو الغلام الحدث ، وفوجئت أنه لايعرف الكثير أو القليل عن الإسلام اللهم إلا الصلاة ، أما الإسلام كبعد عقائدى يجاهد من أجله فلم يكن عند هذا الشاب كذلك حتى يوم التقينا فى عنبر ١٢ ، وإن أردت أن أكون أكثر دقة أقول إنه لم يكن يبدو كذلك . وكان يسكن فى العنبر على مقربة منى ، وكان هذا أدعى للأحاديث الكثيرة بيننا ، كنت فى أغلبها المتحدث الذى يجيب على أسئلته الكثيرة النهمة ، فهو يريد أن يعرف قصة الإخوان المسلمين وكيف اعتقلوا ؟ ولماذا ؟ وماهو الجهاد فى سبيل الله ؟ وكيف قامت دولة الإسلام فى سالف عهدها ؟ ومامعنى دين ودولة ؟ مصحف وسيف ؟ كان يسأل ويسأل ولا يفعل أكثر من ذلك وفيما عدا ذاك فهو مهرج مع المهرجين ، ضاحك مع الضاحكين فى مرح بالغ ، ولا يظهر اهتماما كثيرا بشئون السياسة . وكانت ظروفه الأسرية عسيرة فقد طلقت أمه ، وتزوج أبوه امرأة أخرى ، وتزوجت أمه رجلا آخر ، وهو لايدرى أين يذهب بعد الإفراج عنه ، وكان كثيرا ما يتندر بهذه الحالة ، ويقول ضاحكا :

– هذا الاعتقال قد حل لى الكثير من المشكلات .

وكانوا قد سمحوا لنا مرة بعمل حفل ترفيه احتفالاً بذكرى انتصارنا فى السويس عام ١٩٥٦ ، وطلبنا أن نمثل مسرحية ، ووافقت الإدارة ، وكتبت المسرحية وقام بإخراجها الأستاذ

محمد حسن ومثل فيها شكرى مصطفى دور التلميذ العبيط المدلل من أبيه المعلم الجاهل صاحب المال ، وكان اسم المسرحية أشمونى أفندى وقد أعجب بها محمد قطب كثيرا وبين لنا مافيها من إسقاط سياسى ، وكتبت بتشجيعه مسرحية « البعد الخامس » ولكن هذه قصة أخرى .

كان شكرى مصطفى من غير المهتمين بالسياسة رغم كونه معتقلاً معنا فى قضية سياسية ، ولم يكن أيضا من المهتمين بالإسلام كبعد جهادى رسالى ينبغى التضحية فى سبيله ، وكان يسأل ليعرف ، ثم انتابته حالة لم تلفت نظر أحد فهى كثيرا ماتحدث ، ولا نفسرها إلا بسوء الحالة النفسية ، فهو يصمت ويستمر فى الصمت حتى إنه لا يتبادل الحديث مع أحد بالمرة ، واقتربت منه أيامها وكنت الذى أجيب على أسئلته الكثيرة أسأله عن سبب صمته المريب فلا يجيب ، ويكتفى بالقعود على بطانيته محدقا فى لاشىء ، ويأكل فى موعد الطعام ، ويصلى مع المصلين ، وإذا خرجنا إلى طابور الفسحة لايخرج معنا ويكتفى بالجلوس وحيدا فى العنبر متأملا محدقا حتى يعود الناس ، وتطور الأمر معه فصار يصلى فى الليل ، وكان فى العنبر كثير يفعلون هذا ، وانضم إليهم وصار واحدا ممن يقيمون الليل .

وكففت عن سؤاله عن سبب صمته واكتفيت بملاحظته عن كثب أحاول أن أدرك مايفكر فيه بلا فائدة حتى جاء اليوم الذى رفض فيه التوقيع على التأييد ، وانحلت عقدة لسانه وصار مرحا ثرثاراً كما كان من قبل .

وصرت أنظر إليه ولا أتحدث متأملا متعجبا أحاول أن أفهم فينغلق علىَّ الفهم ، ورآنى واقترب منى وجلس بجانبى – وكان عنبرنا يسمح بهذا لقلة عدد من فيه – وقال لى بشوشا :

– لعلك تعجب من عدم توقيعى على التأييد ؟

– فى الحقيقة نعم .

– تريد أن تعرف السبب ؟

وقلت له ملحا :

– لو سمحت .

وتنهد شكرى مصطفى تنهيدة طويلة ملأت عينيه بالحزن وفارقه مرحه وبدا جاداً صارماً :

– قد رأيت ما حل بنا ومافعلته حكومتنا معنا ، استباحت أبناءها وضربتهم بالسياط ، وقتلتهم واغتصبت الفتيات والأطفال ، قد رأيت بنفسك هذا هنا فى هذا المكان ، وفى السجن الحربى كنا سويا ، وصنفونى من الزعماء ولست كذلك ، قد عرفت هذا بنفسك ، لقد سمعت منك قصة الإسلام بالتفصيل ، لم أسمعها من قبل ، وكلما ازددت معرفة ازددت غيظا ، والظن أنه إن لم تأتنى هذه الفرصة للمعارضة وإعلانها لمت كمدا ، أقل مانفعله لحكومة مثل هذه التى تحكمنا أن نظهر احتقارنا لها ، هذا أقل ماينبغى علينا فعله ، ولو استطعت أكثر من هذا ماترددت .

وتركنى وانصرف ، وظللت غارقا فى تأملاتى ، وشعرت بحزن جارف وأسف عميق ، وأذن لصلاة المغرب فصليت ، وجلست صامتا حتى صلينا العشاء ، ونام الناس وبقيت ساهرا أفكر فى هؤلاء الذين يحدق بهم الخطر وهم مطمئنون هادئون ، ونحن البعيدون عنه القلق يملأ صدورنا وعروقنا متوترة وقلوبنا تكاد تكف عن العمل . وتذكرت أيام الإسلام الأولى والشهداء وروح الفداء التى أقامت الدول وغيرت الأرض .

صرت أفكر فى مواقفهم ومواقفنا ، وروحهم العالية وجذوة الإيمان التى تكاد تخمد فى صدورنا باسم الحكمة والتعقل وعدم الوقوف أمام القطار المندفع ، وباسم التخطيط والرؤية المستقبلية وسائر مانقوله من كلمات لهم تبريرا لمهادنتنا للقوى الخائنة الشرسة ، وأننا أسرى وليس للأسير إذن أو أمر .

وأذن لصلاة الفجر وقمت للصلاة مع المصلين .

وأشرقت الشمس ومع شروقها كانت الطوارىء فى كل ركن من أركان المعتقل ، النظام مشدود ، ممنوع الخروج من العنابر حتى للخدمات العادية التى كان يقوم بها المتطوعون المختارون . ذهبت إلى باب العنبر أنظر من وراء جدرانه إلى فنائه ورأيت ما أعده خبراء الجغرافيا والسياسة ، كانوا قد شبكوا عدداً كبيراً من البطاطين بعرض الفناء وارتفاع الأدوار الثلاثة ، قد رسم بها رسما لشبه جزيرة سيناء وقناة السويس ، وعليها مواقع الجيش المصرى ، وتمركز القوات عند الممرات وفى كل مكان ، والخطة التى رسموها عبر الأسهم لاختراق إسرائيل ولا أدرى من أين حصلوا عليها .

واستدارت الشمس ولا أحد يدرى ماذا يعد أو سبب هذا الكدر العظيم ، حتى ظهر الشاويش النوبتجى ومعه المفاتيح ومر على العنابر وأخرج منها أولئك الذين يديرون المعتقل من بين إخوتنا ، ومضت ساعة وجاء رئيسهم كسيفا حزينا ، وقال هامسا للبعض : سوف يعرض الواحد والثلاثون على قائد المعتقل للاستجواب ، يبدو أنهم سوف يوجهون إليهم تهمة الخيانة العظمى ، لابد أن يرجعوا عن موقفهم ، حاولوا أن تقنعوهم ، هم فى خطر بالفعل .

أنزلوا الواحد والثلاثين الذين رفضوا التوقيع على التأييد إلى الفناء ، وأبواب العنابر القضبانية قد ملئت بالنظارة الذين ملأهم الخوف من الغيب المجهول . وارتفع صوت منكر من مكان لم أستطع تحديده يسب محمد قطب ، وتطور السباب حتى شمل كل شيء ، صوت واحد لم يتابعه أحد ولم يشجعه إنسان ، والرجل واقف فى الفناء تعلو وجهه تلك الابتسامة الخالدة التى تعبر عن التماسك الداخلى العظيم .

ودخلوا واحدا بعد الآخر إلى عبد العال سلومة قائد المعتقل وكانت إجاباتهم تتفق أحياناً وتختلف أحياناً أخرى ، وكاتب يسجل كل شاردة وواردة .

عبد العال سلومة يسأل :

– لماذا لا تؤيد الحكومة فى موقفها العظيم ؟

– نحن كمسلمين لا نؤيد الكفرة .

– وهل تراها حكومة كافرة ؟

– وهل تشك فى ذلك ؟

– هل ترضى أن يحكمك اليهود الذين يغتصبون الفتيات ويقتلون الشباب ، ويفعلون الكثير ؟

– قد فعلت حكومتك التى تريدنا أن نؤيدها أكثر من ذلك ، لم تحسن القتلة حين قتلت واستباحت الأعراض ، ولم ينج حتى الأطفال من هذا .

– أليس من العقل أن ترجع عن هذا الرأى ؟

– أرح نفسك من هذا .

– أنت لاتدرى العاقبة .

– وما العاقبة ؟

– المحاكمة والإعدام شنقا .

– ولماذا المحاكمة ؟ يكفى الإعدام شنقا أو رميا بالرصاص ، أو ضربا بالسياط .

– إلى هذا الحد لاتخاف ؟

– هل عندك كلام آخر ؟

– هل جئت لتستجوبنى أم لتجيب عـن أسئلتى ؟

– هل يمكن أن أنصرف ؟

– فكِّر لآخر مرة ! .

– قد فكرت .

كانت هذه هى إجاباتهم كما نقلت إلينا منهم ومن الكتبة ، وعلمنا فى آخر هذا النهار أن محاكمة ستجرى لهم ثم يتم إعدامهم رميا بالرصاص لعدم توفر أماكن للشنق فى تلك الظروف العصيبة التى تمر بها البلاد .

وفى هذه الليلة كان المؤتمر الصحفى الشهير الذى حضره صحافيون من كل أنحاء العالم لسؤال عبد الناصر عن خططه فى مواجهة إسرائيل ، والذى أعلن فيه أن سنه مازالت صغيرة وأن صحته جيدة وأنه « ليس خرعا كإيدن » وأنه على استعداد لحرب أمريكا نفسها ، وأن هناك خططا قد أعدت لذلك .

وكانوا قد أذاعوا علينا المؤتمر الصحفى من الإذاعة عبر مكبرات الصوت .

وخيم الوجوم على وجوه الناس فهى مقدمات ساخنة لحقيقة مخيفة سوف تكون والساعات تسرع بها وتهيأ كل شىء من حولها .

ونظرت فوجدت محمد قطب ينظر إلَّى باسما واقتربت منه وقال لى بصوته الهادىء :

– هل تذكر النسر الذى جاوز الفضاء فى الرؤيا ؟ هاهو يعلو ويرتفع ثم يسقط من شاهق كما قلت لك ، الحرب واقعة ، والهزيمة حقيقة ، هاهم أولاء قد نسجوا خيوط هزيمتهم بانفسهم منذ سنين .

وفى صباح نادوا على الواحد والثلاثين معارضا ، وطلبوا منهم أن يأتوا بكامل عهدتهم من حاجيات وبطاطين ، ونزلوا إلى فناء المعتقل ، وجاء طبيب السجن وتم الكشف عليهم أمام أعيننا ، وقيل إنهم سوف يعدمون دون محاكمة ، وتعجبت من هذا ، فإن كانوا سيفعلون فما ضرورة الكشف عليهم ، ثم تركوهم فى فناء المعتقل حيث الحر الشديد والشمس الساطعة حتى اقتربت من الغروب .

وحدث هرج ومرج وجاء جند يحملون الرشاشات ، وانهمرت دموع من أعين ووجم الناس وعم صمت جاثم ثقيل ، وفتشت أمتعتهم بدقة ، وعاملوهم بفظاظة ثم أودعوا زنازين شمال .

الفصل التاسع عشر

إذا جاءت الصاخة
(٥ يونيـــو) !!

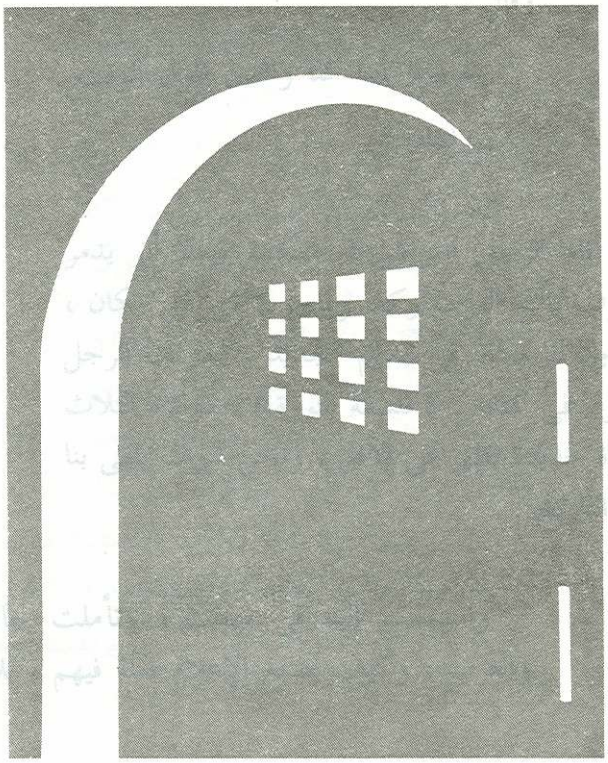

أودع محمد قطب ومن معه زنازين شمال ، وسرت الشائعات القوية أنهم سيعدمون ، وشمل الناس ذهول لبعض الوقت ، وتطورت الحوادث ، وصاروا يذيعون علينا نشرة الأخبار وتعليقات أحمد سعيد النارية ، وانتاب الناس ذعر ، وضاعت المعانى من أنفسهم ، وفقدوا القدرة على التقدير السليم ووزن الأمور بميزان دقيق ، وصدق الناس أن عبد الناصر سوف يلقى بإسرائيل فى البحر كما يقول أحمد سعيد ، وأن هناك قوة خارقة قد حازها الجيش المصرى ، وربما كانت القنبلة الذرية ، وأن القاهر والظافر سوف يطيران فى الفضاء ويحولان مدينة مثل تل أبيب إلى رماد . وكفت الألسنة التى كانت تنتقد الحكومة وتلعن عبد الناصر همسا ، وصار حديث الجميع عن الحرب المزمعة ، ولم يعد أحد ينطق بكلمة ضد الحكومة مع آخرين ، وأذكر أننى اجتمعت مع أحد الأصدقاء القدامى الذين يفهمون اللعبة وكيف تدور وقال :

ـــ يبدو أننا كنا واهمين طول الوقت .

ـــ لماذا ؟

ـــ لقد أقام الرجل امبراطورية ضخمة فبعد أن يدمر إسرائيل سوف يأتيه العرب ركعا وسجودا من كل مكان ، يجب أن نجد لنا مكانا فى العالم الجديد ، يبدو أن الرجل لم يكن هازلا فى كتابه : « فلسفة الثورة » . دوائره الثلاث تتحقق . قوة جديدة تظهر فى الأفق ، ونحن سوف يلقى بنا فى متحف التاريخ .

واستمعت إليه فى صمت ، وتأملت حال المصريين والعرب ، وكيف يصنع الإعلام فعله فيهم ، بلاد تردد فيها

الأكاذيب فتصير حقائق بعد حين قريب ، أمم تعيش على الوهم ، وأوطان تقتات الكلام ولا ترضى بغيره بديلا ، واستفقت على صوته :

ـــ لماذا لا ترد ؟

ـــ إن كنت أنت تقول ذلك فكل الناس معذورون .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ لقد صنع عبد الناصر نظاما لايحقق له غير الهزيمة ، والهزيمة غير المشروطة .

ـــ هل أنت جاد ؟

ـــ سيأتيك صدق ما أقول فى أيام .

وبدا الذعر على وجهه وهمس صاخبا :

ـــ لاتخبر أحدا بهذا الرأى .

وولى من وجهى هاربا .

وارتفعت الشعارات ، وزينوا الوثن ، وامتلأ الصخب وسدت الآذان ، وقالوا سوف يجتمع بنا قائد المعتقل ، واجتمع بنا ، وسبنا سباً قبيحا وقال :

ـــ ها أنتم أولاً ترون بأنفسكم وتدركون بعقولكم إن كانت لكم عقول ، ليس رئيسنا المحبوب عميلا لأمريكا كما ادعيتم ، وها هو ذا يحشد الجيش لحرب أمريكا ، الحرب القادمة مع أمريكا وليست إسرائيل ، وسوف ترون علم الجمهورية العربية المتحدة يرفرف فوق تل أبيب ، لن تروا هذا بأنفسكم فأنتم لن تغادروا المعتقل أبدا ، ربما نعرض عليكم هذا فى التليفزيون .

وانطلق صوت :

ـــ ياسيادة القائد ، لقد أيدنا رئيسنا المحبوب وكتبنا له برقية بدمائنا ، وظننا أنكم تفهمون موقفنا .

ونهره سيادة القائد وأسكته صارخا :

ـــ ليس عندنا وقت لمناقشة هذه السفاسف ، أمور الأمة هى التى تشغلنا ، أما أنتم فليس هناك من عنده وقت للتفكير فى أمركم ، وأنصحكم بالتزام السكينة والهدوء حتى يدخل الجيش إسرائيل ، ولعل رئيسنا يفكر يوما فى أحد أعياد النصر أن يفرج عن المؤدبين المطيعين منكم .

ثم غادر المكان بين وجوم الجميع وعدم تصديقهم لما سمعوه ، وندم كثير من الموجودين على انسياقهم فى لعبة التأييد .

ومضت طبول الحرب تدق ، وساعة الصفر تقترب ، ومن الناس من يؤكد أنها لعبة كبيرة تلعبها أمريكا ، وأنه سوف ينتصر أمام إسرائيل ، فيكون بطلا أسطوريا يحقق لهم كل ما يريدون فى أرض العروبة والإسلام ، أما أنا فكان يقينى أن الحرب واقعة ، وأنه مهزوم لامحالة ، فنظامه لايحقق انتصارا ما ، وجيشه لايصلح لغير ضرب المصريين فى مصر والعرب فى اليمن ، أما القتال الجدى أمام عدو شرس مثل إسرائيل فهو ضرب من المحال . فالذى يحكم أمة من الأمم ويتصرف فيها برأيه دون الرجوع إلى أحد لابد وأن يؤدى به منطقه إلى الهاوية .

وتذكرت حينئذ ذلك اليوم المشهود من أيام يوليو ١٩٥٦ حين قرر الزعيم أن يؤمم قناة السويس ، ولم يخطر قائد جيشه إلا فى نفس اليوم ، وجمع مجلس وزرائه قبل إعلان قراره

بساعتين ، وكيف أنهم قالوا له إنها الحرب ، وإن الجيش لايقوى على هذا ، وإنه لم يستوعب بعد الأسلحة السوفيتية ، واعترض كل وزرائه حتى إنه نهر سيد مرعى كما جاء فى مذكراته ، وأعلن القرار ، وكانت الحرب ، وكانت الخسارة الكبيرة التى لم تعلن على الناس إلا هذه الأيام ، فإسرائيل لم يكن يسمح لها باستعمال خليج العقبة فى الملاحة ، وكانت قرية أم الرشراش التى استولت عليها وصنعت منها ميناء إيلات لاقيمة لها ، فهو ميناء لا يستعمل ولا تجرى له السفن ، ثم سارت القوافل بعد ذلك وصارت علاقة إسرائيل بدول أفريقيا وطيدة ، وجاءها البترول من إيران أنهارا . ودارت الأيام وصار هذا سببا لحرب جديدة تزمع أن تكون .

إن كان هذا الزعيم قد أثبت للدنيا قصر نظره فى حروبه الفاشلة المتعددة فكيف يمكن أن يقدم هذه المقدمات لحرب لايدرى مداها وأبعادها إلا الله سبحانه وتعالى ؟ ، وكيف يعرض الجيش لمعركة ونصفه فى اليمن ، ونصفه الآخر يدير المباحث الجنائية العسكرية فى السجن الحربى ؟ ، أسئلة ليس لها أجوبة ، وألغاز لايفهم سرها ، وغيب لايدرك أحد مرماه وحكمته .

وقال قائل من أهل الحكمة والفهم :

ـــ هو يريد التخلص من الجيش !! .

ـــ وهل هذا يعقل ؟ لماذا ؟

ـــ لقد تخلص من كل القوى الموجودة فى مصر على مدار السنين التى مضت ، ولم تبق قوة أمامه غير عبد الحكيم عامر ، فهو يلفق له تهمة الهزيمة ويتخلص منه ، ثم يحكم البلاد حكما شرعيا دستوريا ديموقراطيا اشتراكيا لاينازعه فيه أحد .

ـــ التخلص من الجيش إذلال لمصر وقضاء عليها .

ـــ هذا لا يهم فى الموضوع ، يمكن أن نأتى بشعب آخر وجيش آخر أكثر قوة وأشد فاعلية ، ويكون سلاحه إسرائيليا أو أمريكيا .

ـــ أنت متشائم أكثر مما ينبغى .

ـــ أنا أرى الأمور بوضوح .

* * *

عندما عزلوا محمد قطب ومن معه فى « زنازين شمال » صار عنبرنا أكثر العنابر راحة فى الإقامة ، وأكثرها حزنا على من عزلوا ، فقد خرج من العنبر عشرة أشخاص وتبقى به ستة وعشرون ، وهو مكان يضعون فيه سبعين أو ثمانين ، وخلا العنبر من شخصيات كانت تشيع البهجة فى النفوس ، وتعمق الإيمان فى القلوب ، ونسى الناس حديث الإفراج ، ولم يبق لهم غير حديث الحرب القادمة ، وكانت الأخبار والشائعات تملأ المكان ، ووصل التوتر بالمعتقلين مداه ، فهم يستعجلون الحرب ليروا ماذا يحدث بعدها ، والأناشيد الحماسية تتعالى من مذياع المعتقل فتشيع جوا (هتلريا) مفعما بالخوف والترقب .

وسرت شائعة فى المعتقل مؤداها أن أهل زنازين شمال سوف يعدمون فى الغد ، بعد محاكمة صورية لامعنى لها ، وكان هذا نهار ٤ يونيو عام ١٩٦٧ .

وجاشت النفوس بالحزن والغضب والرهبة ، وعلت الكآبة كل الوجوه بلا استثناء ، وعربد الخوف فى نفوس الكثيرين .

وصاحب هذا الأخبار التى تعلن عبر أجهزة الإعلام أن العالم كله يتوسل إلى عبد الناصر ليكون رحيما بإسرائيل وأن يمنع الحرب ، وأن الرئيس يفكر فى الأمر ، كل هذا جعل قتل ثلاثين أو حتى مائة أمرا لا قيمة له ، ولا يلتفت له إنسان ، ولايهتم به العالم المنشغل بالحدث العظيم ، وهو اعتزام الرئيس القضاء على إسرائيل وإلقائها فى البحر .

وجاء صباح ٥ يونيو عام ١٩٦٧ .

التوتر يملأ المكان ، لم يخرج أحد من العنابر حتى الخدمات العادية ، فهو يوم محاكمة أهل زنازين شمال كما تواترت الشائعات من قبل ، وكان الحر عازما ، والذباب يملأ المكان ، وكنت قد نمت ساعات مضطربة بعد صلاة الفجر ، واستيقظت مرغما من كثرة الذباب والعرق الذى يحرق الأعين ، وجلست مستويا فى مكانى ، ورأيت على مقربة أحمد عادل كمال يقرأ القرآن دون أن يرفع صوته ، والمرحوم منير دله يحاول أن يزيل الذباب الكثيف من حوله ، وقد آذاه الحر وأرهقته السمنة وهو الأرستقراطى المرفه ، وكان يقضى مثل هذا الوقت من السنة فى منطقة من جبال الألب فى أوروبا تقع بين ألمانيا وفرنسا كما حكى لنا ، وكان شمس الدين الشناوى يتناول طعامه ويزدرده فى آلية ، وأمامى كان حافظ سلامة يحاول أن يرتق ثوبه ، والصمت يغشى المكان ولا يتكلم أحد ، وكأن الناس قد ملت الحديث والكلام . ودارت عينى فى الوجوه حتى استقرت على الأستاذ شمس الدين الشناوى ، وقال ببشاشته التى لاتفارقه :

ـــ ما رأيك فى الطعام ؟

وقلت أداعبه وأنا أقوم متحركا ناحيته :

ـــ «كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة » .

وقال :

ـــ والشاى ساخن طيب يذهب الحزن ويعين على مصائب الدهر .

وهممت بالجلوس بجانبه لتناول الإفطار معه ، ولكنى سمعت أصوات مدفعية تأتى من بعيد وانفجارات مكتومة وانتبهت :

ـــ هذه أصوات المدافع والقنابل تأتى من بعيد .

وقال الأستاذ شمس الدين الشناوى :

ـــ هى التدريبات والمناورات تمهيدا للحرب .

وقال الأستاذ أحمد عادل كمال الذى انتهى من قراءته وأغلق المصحف :

ـــ عند ما تعلن التعبئة العامة لايكون هناك تدريبات أو مناورات .

واهتممت والتفت إليه :

ـــ وماذا تظن عن هذه الأصوات ؟

وفكر أحمد عادل كمال قليلا ثم قال :

ـــ نحن نبعد عن مطار ألماظة الحربى بحوالى ثلاثين كيلو مترا .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ الظن أن اليهود يدكون المطارات والمنشآت العسكرية فى مصر الجديدة .

وانتبه أهل العنبر ، كف حافظ سلامة عن رتق ثوبه ، انتهى شمس الشناوى من الطعام ، جلس منير دلة وفى وجهه قلق ، قام عبد الفتاح المحروقى يصيخ السمع وهو يقول :

ـــ لقد كنت ضابطا فى المدفعية . هذه مدفعية مضادة للطائرات .

ثم يسمع أكثر ويقول :

ـــ هذه انفجارات الطوربيدات .

وانطلقت إلى الباب القضبانى أنظر إلى الفناء ، ولكن لا أجد أحدا غير الوجوه المطلة من أبواب العنابر الأخرى وهى تشير لى بأيديها إشارات متسائلة عن الأصوات البعيدة ، فأشير لهم بذراعى ما معناه أنها الحرب ، ثم رأيت قائد المعتقل يدخل مهرولا وهو يرتدى القميص والبنطلون ويصعد السلم عدوا ومن خلفه الجند والشاويشية والضباط ، والكل فى انتباه شديد واهتمام بالغ ، ورأيته فى الدور الثالث يشير بيديه هنا وهناك ، والضباط والشاوشية والعسكر ينتشرون وفى أيديهم المفاتيح يفتحون بها أبواب العنابر فى هرجلة وسرعة واضطراب ، وعدت أنقل إلى أهل العنبر ما رأيت ، وتوتر الناس فلا أحد يفهم مايجرى .

وعدت أراقب ما يحدث فى الدور الثالث .

قائد المعتقل يدور على العنابر بنفسه ويقول لأهل كل عنبر كلاما لا أسمعه ، ثم يلتفت إلى الضباط ويشير لهم إلى الدور الثانى حيث نقيم ، ونزلوا مسرعين بعد أن فرغوا من فتح عنابر الدور الثالث . واقترب الملازم حازم شفيق من عنبرنا ومعه جندى بيده المفاتيح وقلت أسأله :

ـــ ماذا هناك ياحازم بك ؟ هل هو الإفراج ؟

وقال الرجل فى اهتمام بالغ :

ـــ هى الحرب . الجيش المصرى يجتاز الحدود الإسرائيلية الآن .

ـــ ياجماعة اعملوا حسابكم ، فى خلال نصف ساعة سوف ينزل أهل الدور الثالث ليقيموا مع الدور الثانى ، العنبر الذى فوقكم ، يعنى عنبر ٢٤ سوف يقيم معكم هنا ، أوسعوا لهم مكانا .

ثم انصرف مسرعا ليفتح الباب الذى يليه .

وعدت إلى مكانى بجوار أحمد عادل كمال وأنا أقول له :

ـــ ذهبت أيام الراحة ، سنعود كما كنا سبعين أو ثمانين . ولكن لماذا يفرغون الدور الثالث من ساكنيه .

وقال أحمد عادل كمال فى هدوء :

ـــ سيُملأ بمعتقلين جدد ، والظن أن هذا يتم اليوم للسرعة التى بها يتصرفون.

ـــ وصرت أتمتم مذهولا :

ـــ معتقلين جدد ! لا إفراج إذن ؟

ـــ ربما يأتون بمن خرج من قبل .

ـــ لعلهم يريدونه فى شىء آخر .

وابتسم أحمد عادل كمال :

ـــ هذا معتقل ، ويستعمل لهذا الغرض . هيا نضيق الأماكن فسيكتظ العنبر بالسكان بعد قليل ، ويبدو أن لا وقت عندهم .

وصرنا نلملم أمتعتنا لنعيد ترتيبها من جديد على ضوء هذه المتغيرات ، وكان الحديث متصلا بيننا ، والرجل له علم وثقافة بالحروب ، فقد خلق ليكون عسكريا ناجحا ولكنه أخطأ الطريق إلى عالم المال والبنوك .

ـــ ماقولك فى هذه الحرب ؟

ـــ الظن أنها تنتهى هذا النهار .

ـــ يقولون إن الجيش المصرى يجتاز الحدود الإسرائيلية .

ـــ ربما يكون هذا صحيحا ، ولكن ما قيمة هذا لو انقطعت خطوط الإمدادات والتموين ؟

سيتحولون إلى أسرى ، إسرائيل لها خطط ثابتة فى حروبها مع مصر . طوابير من المدرعات تصل إلى قناة السويس لعزل الجيش المصرى . هذا بطبيعة الحال بعد تحطيم الطيران المصرى وأجهزة الدفاع الجوى . وهى لايمكنها الحرب على أرضها فهى دائما تنقل العمليات العسكرية إلى أرض العدو ، إلى الأراضى المصرية .

وكأن الرجل كان معهم فى رسم خطط القتال ! هذا عندما عرفنا ماجرى بعد ذلك . ونزل أهل العنابر العلوية ، وامتلأ المكان بالناس وعدنا كأيام الاعتقال الأولى ، كل واحد من النازلين يحمل أمتعته وحاجياته ، ويدخل ليجد مكانا بعد مداولات مع مسئول عنبرنا ومسئول عنبر ٢٤ .

وكنا فى المعتقل نادرا ما نعرف أسماء الأيام باستثناء يوم الجمعة ، ونعرف اسم الشهر بعد انقضاء أسبوع منه على الأقل ، ولانعرف من علامات الأزمنة غير الفصول ، الشتاء والصيف والربيع والخريف . ولكن كان البعض يحفظ الأيام

والتواريخ ويراقبها ويحصيها وينتبه لها ، وسألت واحدا من هؤلاء :

ـــ ما اسم هذا اليوم ؟

ـــ الإثنين .

ـــ ما رقمه ؟

ـــ خمسة يونيو عام ١٩٦٧ .

ـــ تذكر هذا التاريخ جيدا فهو يوم له أثره فى تاريخ مصر والعرب .

* * *

صارت أصوات الانفجارات تسمع بوضوح بعد أن انتصف النهار ، وصار الوقوف على الباب القضبانى للعنبر أمرا بالغ الصعوبة عندما امتلأ المكان . وصدقت فراسة أحمد عادل كمال فقد امتلأ فناء المعتقل بعد قليل بمعتقلين جدد ، ولم يكونوا من الإخوان المسلمين ، بل بدأت الوفود بجمع من الشباب والشيوخ لهم سحنة غريبة أجنبية وهم يرتدون ملابس فاخرة أو كنا نراها كذلك لرداءة ملابسنا وقدمها .

ـــ لقد جاءوا بخواجات .

ـــ هؤلاء يهود .

ـــ ما أسوأ ما فعلوا بنا ، يسجنوننا مع اليهود ، نحن الذين حاربناهم عام ١٩٤٨ ؟

ـــ أنت لاتعرف نعمة حبس اليهود معنا .

ـــ أهى نعمة ؟

ـــ سوف ترى بنفسك .

ـــ كيف ؟

ـــ هؤلاء قوم لهم من يبحثون عنهم ويهتمون بأمرهم . ستتحسن الأحوال هنا بوجودهم ، هناك الصليب الأحمر سوف يأتى للتفتيش ، والدول الكبرى ستتدخل ، ومن ثم سوف يصيبنا شيء من الخير الذى يأتيهم .

ـــ أتظن هذا ؟

ـــ سوف ترى بنفسك ، حكومتنا ضعيفة عميلة ، والقائمون على أمرنا يخافون ولايختشون .

ـــ الجيش المصرى يجتاز الحدود الإسرائيلية .

ـــ سلِّم لى على الحدود الإسرائيلية !

وأضاف بعد بسمة مستنكرة ساخرة :

ـــ وعلى حضرتك !

وانطلق أحمد سعيد مدويا بصوته من مكبرات الصوت يعلن عدد الطائرات التى أسقطتها مدفعيتنا المضادة ، وقرب الغروب وصل عدد الطائرات التى سقطت إلى أكثر من ستمائة طائرة ، الأمر الذى ملأ نفوس العسكريين وعلى رأسهم أحمد عادل كمال بالدهشة الشديدة ، فإن كان الذى سقط أكثر من ستمائة طائرة فما هى قوة إسرائيل الجوية على وجه التحديد ؟ وقال واحد :

ـــ هذه بيانات كاذبة .

واستنكر آخر :

ـــ لايمكن أن تصل بهم الوقاحة إلى هذا الحد ، هذه

بيانات يسمعها العالم كله ، ولا يستطيعون الظهور على هذه الصورة . البيانات صحيحة .

ـــ هم لايستحون ، ولا يضحكون على أحد غير الشعب المصرى الغلبان .

وجاء الليل والإضاءة ممنوعة ، وخيم الظلام ، وانقطع صوت المذياع ، ولم يعد يصل إلى حواسنا غير أصوات الانفجارات التى لم تنقطع طول الليل ، واقترب صوت بعض هذه الانفجارات وقال قائل :

ـــ ماذا لو أخطئوا وظنوا المعتقل منشأة عسكرية ودكوها بالقنابل ؟

ـــ فى هذه الحالة سوف ينجو أهل زنازين شمال فهم فى مخبأ طبيعى .

ـــ لاتخف . اليهود يعرفون كل شبر من أرض مصر .

وارتفع صوت متشنج :

ـــ سينتصر الجيش المصرى ويعلو علم الجمهورية العربية المتحدة فوق الأرض التى سرقتها إسرائيل .

وجاء صوت متثاقل :

ـــ لماذا لانخلد إلى النوم خيرا من التعليقات العقيمة .

ـــ النوم صعب فى هذا الحر الشديد .

ـــ الغريب أن الذباب يملأ وجهى رغم شدة الظلام .

ـــ الذباب يأتى على وجهك المضىء .

ولعل هذه الجمل المتناثرة لم تنقطع طوال الليل ، ولعل الجميع قد ظلوا مستيقظين فى هذه الليلة فى توتر وترقب ، والكل يفكر ويحسب العواقب والألم يعصر القلب .

انتفض الناس فى اليوم التالى للحرب على صوت أحمد سعيد وهو يرشد العدو الإسرائيلى محددا أماكن القوات العراقية المتجهة إلى إسرائيل عبر الأردن وسوريا ، وصار يذيع أماكن تواجدها على طول الطريق الكيلو سبعين ... الكيلو ستين .. وهكذا . وعرفت بعد ذلك أن أغلب هذه القوات قد ضاع فى الطريق ودمره الطيران الإسرائيلى تماما .

ظهر قائد المعتقل والضباط والعسكر ، ولفت نظر الواقف على الباب القضبانى أن الكل يمسك بالهراوات والعصى والكرابيج ، وتوتر الناس جميعا ، وعقب توترهم بدا عليهم شىء من الراحة وقال قائل :

ـــ مضى زمن ولم نضرب ، لعلنا نهدأ بعد أن نمد على أرجلنا .

وصارت السيارات تنقل معتقلين جددا من اليهود وغير اليهود .

وتحول هؤلاء الضباط الودعاء إلى وحوش كاسرة ، وصاروا يقذفون بالشخص المعتقل إلى داخل الفناء ، حيث تتسلمه فرقة تطحنه طحنا بالهراوات ، ثم يذهب إلى أحد الشاويشية ليملأ أورنيك الاعتقال . كان هذا مع التعليمات الجديدة التى وصلت مع الصباح ، جميع من فى عنابر الدور الثالث وبها اليهود يهتفون بسقوط إسرائيل وأمريكا ، وظلوا جميعا يهتفون هذه الهتافات عدة أيام حتى وضعت الحرب أوزارها .

وارتفع صوت من أحد عنابر اليهود مرددا والآخرون يردون عليه :

ـــ تسقط فرنسا .

وانتفض قائد المعتقل غاضبا :

ـــ فرنسا معانا ياابن الكلب .

كأن الهتاف يذاع على العالم تليفزيونيا !

وعظم عدد المعتقلين من اليهود عند انتصاف النهار ، وأنزلوا بعض المعتقلين القدامى من الإخوان ليشاركوا فى عملية الإيواء فى العنابر ، وتسجيل الأسماء وملء أورنيكات الاعتقال .

ومع غروب الشمس كان فى كل عنبر من عنابر الدور الثالث مائة على الأقل وصار اليهود أقلية مع عدد المصريين الغفير الذين تم اعتقالهم ، ولا أحد يعرف هويتهم ، فهم ليسوا بالإخوان وفى بعض الأحيان ليسوا بالمسلمين ، فقد كان هناك عدد غفير من المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك ، وجماعة شهود يهوا .

وكان الإجراء أن يرفع المعتقل الجديد رجليه فى « الفلقة » ويمد عليها حيث الضرب الموجع بالهراوة ، وعليه أن يهتف أثناء العلقة :

ـــ يعيش الرئيس جمال عبد الناصر .

إى والله هذه كانت التعليمات ، وهذا ما شاهدناه بأعيننا وسمعناه بآذاننا .

ورفض واحد من جماعة شهود يهوا أن يهتف هذا الهتاف ، وصار يردد :

ـــ المجد لله فى الأعالى ، وعلى الدنيا السلام ، وبالناس المسرة .

وكنا نضحك سخرية وغيظا وكمدا ، وهل هناك مسرة أعظم من هذا ؟ وكنا نسأل ضباط المعتقل عن أخبار القتال ، فقد أغلقوا المذياع بعد العصر ، فكانوا يقولون لنا :

ـــ معظم أرض فلسطين قد تحررت تقريبا ، هناك منطقة صغيرة على مقربة من سوريا استعصت على التحرير .

ـــ وهل سقطت تل أبيب ؟

ويبدو التفكير على الضابط الجاهل ويقول :

ـــ لست أدرى بالضبط ربما سقطت ، ولكنهم لم يعلنوا عن هذا بعد .

وجاء الليل وتزايد عدد المعتقلين ، ونفس الإجراءات تتم مع الظلام الدامس والخوف المتزايد ، والصراخ والعويل ، وأصوات الانفجارات التى بدأت تتلاشى حتى انتهت تماما .

ونام الناس على أمل أن يعلن فى الصباح تحرير كل أرض فلسطين .

* * *

وجاء صباح اليوم الثالث من الحرب ٧ يونيو عام ١٩٦٧ .

انقطعت الأخبار تماما ، لا صحف لا مذياع ، وعندما نسأل واحدا من الضباط أو الجند عن الأخبار نسمع إجابة واحدة :

ـــ ممنوع الأسئلة .

والمعتقلون الجدد يفدون تباعا ، أشكالا وألوانا ، وكلهم فى اليوم الثالث من أيام المعركة من المصريين الذين ليست لهم هوية سياسية فيطلقون عليهم ما يسمى « بالنشاط المعادى » لتمييزهم عن الإخوان وعن الشيوعيين .

من كل بلاد مصر وقراها جاء هؤلاء المعتقلون ، وهم يجهلون السبب لاعتقالهم فى براءة واضحة وتأكيد صادق . وكانوا يصنفونهم مجموعات ويحشون بهم العنابر وفقا لخطة لا نعرفها ونظام نجهله ، والناس الجدد ليس بينهم رابط ما يعرفونه ، ولكن هناك بالتأكيد مايجمع بينهم فى رأس المباحث .

وتسربت شائعات الهزيمة ، واستنكرناها جميعا ، وفهمنا أن الحكومة تقوم بجس نبض المعتقلين .

وفتح المذياع على مكبرات الصوت فجأة ، وسمعنا الأناشيد الحماسية ، ثم أحمد سعيد يعلن أن قواتنا وصلت « نيوجرس » ثم أناشيد حماسية فنشرة الأخبار ، التى تؤكد الانتصار وتضيف عددا من الطائرات التى سقطت إلى المئات الأخرى التى تم الإعلان عنها من قبل ، ثم اجتماع للقيادة العامة للقوات المسلحة ، وإعلان أن قواتنا تتمركز فى خط الدفاع الثالث ، ثم أغلق المذياع فجأة كما فتح ، وعرفنا أنها غلطة من أحد الشاويشية ، وقد عوقب من أجل ذلك .

وسألت أحمد عادل كمال فهو مرجعنا فى تفسير مالا نفهمه من المصطلحات العسكرية :

ـــ مامعنى خط الدفاع الثالث ؟

ـــ هو خط وهمى يمكن أن يكون غرب قناة السويس أو فى الشرقية أو القاهرة .

ـــ وما معنى هذا الكلام ؟

ـــ معناه أننا هزمنا هزيمة ساحقة منكرة .

ـــ وهل هذا معقول ؟

ـــ ليس هناك ماهو أكثر معقولية منه .

وكنت أتوقع الهزيمة ، وكنت واثقا منها ، فمقدماتها قد حدثت بالكامل فى السنين التى سبقتها ، ولكن توقع المصيبة شىء وحدوثها شىء آخر .

* * *

وجاء اليوم الرابع من ايام الحرب ٨ يونيو عام ١٩٦٧ .

تأكد للجميع رغم التعتيم على الأخبار أن الجيش المصرى قد هزم هزيمة ساحقة ، وضاع كله وتبدد ، ولم ينج منه غير أفراد قلائل بعد أن تركوا أسلحتهم وملابسهم وتخلصوا منها فى صحراء سيناء الحارقة .

والنهار يمضى بطيئا كئيبا ، واليهود فى الدور الثالث يهتفون :

ـــ تسقط أمريكا .. تسقط إسرائيل .. تسقط بريطانيا .. يعيش الرئيس جمال عبد الناصر .. الموت لأعداء القومية العربية .

ولكن بطريقة أكثر تثاقلا هذه المرة ، وذلك من شدة الإنهاك ، ومن معرفتهم بالحقيقة كاملة .

من أين عرفوا بهزيمة عبد الناصر وانتصارهم ؟

لا أحد يعلم .

ورغم تأكيدات الأخبار بالهزيمة إلا أنه لم يصدر إعلان

رسمى بذلك ، وعلى هذا كان الكثير يداعبه الأمل فى عدم دقة الأخبار ، وأنها سوف تعلن، وهى عكس هذا تماما ، ولم يتصور أحد حجم الهزيمة الهائلة فى ذلك الوقت ، ولم يخطر تخيلها على الصورة التى حدثت فى بال أحد .

ونسى الناس أحاديث الإفراج ، ولم تعد تخطر الفكرة ببالهم ، بل صاروا يفكرون فى المصيبة الجديدة العظيمة التى « زادت وغطت » وفاقت كل شىء .

رأينا ضباط الشرطة الودعاء الطيبين ، الذين لم تمتد يدهم بأذى قط ، ولا لسانهم بقول بذىء ، وهم ينقلبون وحوشا ضارية ، يسبون بأقذع الكلمات ، ويضربون الناس ضربا موجعا قاتلا بلا رحمة ، وعندما تسألهم :

ـــ لماذا هذا الذى تفعلونه ؟

فيجيبون فى بلاهة وبلادة وبساطة :

ـــ هى الأوامر .

وأتعجب من قول ذلك الضابط ، الأوامر أن تكون وحشا من داخلك ، وهل يمكنه الاستجابة على هذا النحو الدقيق العجيب ، يتلقى باطنه أمرا فيستجيب له بكل مافى عمقه من طاعة عمياء وعبودية كاملة . ولم أر ذلك الذى ترفع عن تنفيذ هذه الأوامر المشينة المخجلة المخلة بالشرف ، لم ألقه فى سجن أو معتقل من تلك التى جُلت فيها تحت سماء مصر .

وفى هذه الليلة تم الإعلان رسميا عن الهزيمة المنكرة ، وحررت لها شهادة الميلاد ، وأطلقوا عليها اسم النكسة ، وفى خانة الأب تقرأ اسم جمال عبد الناصر رغم أنهم لم يكتبوه ، وفى خانة الأم تقرأ اسم الشعب المصرى للأسف الشديد .

كان الناس فى عنبر ١٢ يبكون فى تلك الليلة عندما تأكد خبر الهزيمة ، وكان ضباط المعتقل يسهرون فى الفناء الخارجى بين مبنى المعتقل والسور المحيط به ، وظللنا نسمع ضحكاتهم حتى انتصف الليل ، رغم أنهم كانوا أكثر دراية بتفاصيل الهزيمة منا ، فهم يعيشون فى القاهرة حيث الصحف والأخبار الآتية من إذاعة لندن ، وحيث الأهل والمعارف من ضباط الجيش وجنوده ، كانوا يضحكون ولا يبكون وهم سامدون ، فقدوا انتماءهم لوطنهم ، ولم يعد الأمر يعنيهم فى قليل أو كثير .

* * *

طلع نهار يوم الجمعة التاسع من يونيو عام ١٩٦٧ .

ومن الباب القضبانى رأينا العجب العجاب ، كأنه فيلم سينمائى أو مسرحية ، والممثلون يرتدون ملابس ذلك العصر .

كل رجال الحكم الديموقراطى قبل الثورة يدخلون إلى فناء المعتقل مع الخيوط الأولى من ذلك النهار ، حامد زكى ، محمد صلاح الدين ، سليمان حافظ ، وغيرهم وغيرهم ، مكثوا ساعة ثم انصرفوا بهم إلى حيث لانعلم ، لم يضربوا ولم يشتموا ، بل ظلوا واقفين فى رزانة مشوبة بالانبهار .

وجاء عبد العال سلومة قائد المعتقل وقال لمن هم وقوف من المعتقلين على باب مكتبه وكان وجهه متهللا باشا كما روى من رآه لحظتها :

— سوف تسمعون اليوم أعظم خبر فى حياتكم .

— سوف يفرج عنا ؟

ـــ شيء أعظم وأكبر .

ـــ استقالة الرئيس جمال عبد الناصر .

ونسى الرجل القصة بعد ذلك ، ولم يذكرها كأنها لم تكن ، وعاوده وحشه الذى يعيش فى أعماقه .

استقال وألحوا عليه أن يبقى فبقى ، ورقص النواب فى القاعة .

وقالوا دون حياء : إننا لم نهزم فقد كان غرض العدو أن يسقط النظام وها هو ذا زعيمنا بيننا باق ، وهو غاية ما نطمع فيه ونريده ، أما الجيش فنستطيع أن ننشىء جيشا آخر ، وسيناء التى احتلت لاقيمة لها ، فهى أرض من الرمال لا زرع فيها ولاماء ، والكرامة العربية كلمة لامعنى لها ، وهى فوق ذلك محفوظة بإذن الله مادام رئيسنا المحبوب معنا لم يغادرنا .

ولتسقط إسرائيل . .

وليحيا الرئيس عبد الناصر .

وليشرب من لم يعجبه هذا من البحر ، وإن لم يكفه البحر الأبيض فليشرب من الأحمر .

* * *

انتهت الحرب وعرفنا الأخبار الصحيحة وفهمنا قدر الهزيمة ، وعلمنا أنها لم تستغرق غير يوم واحد كما قال أحمد عادل كمال بالضبط ، ومع نهاية أيام الحرب صار الإخوان المسلمون أقلية فى المعتقل ، بعد أن حشروا الناس فى الدور الثالث حشراً ، وصدرت الأوامر بعدم ضرب الناس ، وعدم لعن آبائهم وأمهاتهم ، وصاروا مثلنا لهم وعليهم نفس مالنا وعلينا .

وكان فى الدور الثالث عنبر لعله رقم ٢١ اسمه عنبر « النكت » كل من جاء فيه قد قال « نكتة » ضد الرئيس عبد الناصر ، فكنا نختلس الوقت ونصعد ، وعلى بابهم ذى القضبان الحديدية نسمع ونضحك ، وننزل ونحكى ليضحك الآخرون والمرارة تملأ حلق الجميع .

وصدق حدس من قال إن اعتقال اليهود معنا سوف يصيبنا بالخير ، فما هى إلا أيام بعد انتهاء الحرب حتى جاءتهم الخطابات بعد أن سمحوا لهم بإرسالها ، وجاءتهم الهدايا والطرود من كل مكان ، وزارهم أهلهم ، وصار يأتيهم الطعام من بيوتهم يوميا ، ومن ثم صاروا سادة المعتقل ، سادة الإدارة بطبيعة الحال ، ثم رحلّوا اليهود من معتقل أبى زعبل إلى طرة ، لأنه من غير المناسب أن يتميز هؤلاء ويترك أولئك ، وبعد ذلك بشهر أو أكثر سمحوا لنا بإرسال خطاب فى الشهر لكل معتقل ومن ثم يستقبل خطابا واحدا إن جاء .

* * *

كان تأثير هزيمة يونيو عظيما على المعتقلين . فكل التدريبات التى كانت تجرى وعمليات غسيل المخ التى كانوا يقومون بها ليل نهار انتهت فجأة ، وذكرنى هذا بتجربة قرأتها يوما وهى أن عالما أجرى تدريبات لبعض الفئران والقرود على أداءات معينة ، وهى فى أقفاصها بمعمله ، ولما أتقنت هذه التدريبات حدث سيل مفاجىء واجتاح معمل هذا العالم ، وغطى الأقفاص جميعها ، وانزاح الماء ولاحظ العالم أن هذه الحيوانات قد نسيت التدريبات .

وكانت هزيمة يونيو هى السيل الذى اجتاح كل شىء فأفاق الناس .

بطل السحر ، وهانت الحكومة فى عين الجميع ورأوها على حقيقتها ، ووضعوا رئيسهم فى حجمه الحقيقى ، وعرفوا أن كل ماسمعوه دجل وتزييف .

اختلفت الأحوال فى أبى زعبل بعد الهزيمة ، صار الناس يتكلمون فى السياسة بعد أن كفوا عن هذا ، صاروا يسبون رئيسهم بعد أن كانوا لايستطيعون مجرد ذكر اسمه ، بدأت روح جماعة الإخوان المسلمين تظهر من جديد فى نفوس الناس وكلامهم ، وصاروا لايتحرجون من هذا بعد « تقية » استمرت حتى تلك اللحظة ، صاروا ــ وفى ليلة واحدة تم كل هذا ــ يتجرءون على قائد المعتقل يوبخونه ويعنفونه ويصفونه بعدم الوطنية عيانا جهارا ، وكان هذا من المستحيل قبل ذلك .

ورغم عظم الهزيمة إلا أن إدارة المعتقل ــ بتوجيه من المباحث ــ ظلت أحوالها على النمط الذى كانت تسير عليه فى الماضى .

كان أصحاب زنازين شمال ممنوعين من أى طعام أو شراب باستثناء طعام السجن الردىء الذى يضر الصحة والبدن ، وكنا نقوم على تهريب الطعام لهم كل يوم ، تهريب الطعام مثل الخضراوات والفواكه والألبان والعسل والأدوية وكل شىء ، وكان لى شرف الاشتراك فى هذا ، وكان أشهر من قام بتهريب الطعام إلى أصحاب زنازين شمال هو الأخ السيد عجوة ، والأخ رشدى عفيفى ، وكان هناك ابتكار واختراع فى تهريب الطعام إليهم رغم تضييق الخناق على هذه العملية ، وكثرة التفتيش بين الحين والآخر ، ولكن الطعام

والشراب فاض وزاد فى زنازين شمال حتى إنهم طلبوا عدة مرات تخفيض الكميات لأنهم لا يستطيعون الاستفادة منها جميعا فهى تفسد ، وكانت كل العنابر تتبارى فى تقديم الأطعمة للمسئولين عن توصيلها .

وكانوا قد منعوا الاتصال بهم تماما ، فكنا نكلمهم من النوافذ أثناء طابور الفسحة اليومى ، ثم احتلنا على قائد المعتقل لندخل إليهم بدعوى استتابتهم وصدق المسكين فسمح لى ولآخرين بالدخول عليهم ، فجلسنا معهم نسمر وننظر فيما يحتاجونه لنأتيهم به ، ويسألنا قائد المعتقل عن النتيجة فنسأله الصبر لأنها أمور تحتاج إلى وقت ، ثم نفد صبره ، ومنع هذه الزيارات بحجة أننا لا نستطيع تغيير عقولهم ، ونفد صبرنا نحن الآخرون وقلت له :

ـــ إن كانوا لم يؤيدوا عبد الناصر وهو فى أوجه أتظن أنهم يؤيدونه بعد أن هزم هذه الهزيمة الشنعاء ؟

وساءت الأحوال بينى وبينه وصرت من المتهمين لديه .

ومن الطريف أن فكرة تكفير المجتمع كانت قد ظهرت بين أصحاب زنازين شمال بعد ذلك الظلم الذى أصابهم ، والقتل الذى كان ينتظرهم يوم خمسة يونيو وسمعت بهذا وناديتهم من الفناء :

ـــ أصحيح أنكم تكفروننا ؟

ورد على المرحوم أحمد نصير وكان جارى فى عنبر ١٢ :

ـــ نعم .

وامتلأتُ دهشة :

ـــ أترونا كذلك ؟ لسنا من أهل القبلة ؟

ـــ وهل تظنون أنفسكم من المسلمين ؟ الإيمان والكفر كلمات تقال .

ـــ والطعام الذى آتيكم به مع الآخرين ؟ وتعريض أنفسنا للخطر من أجلكم .

ـــ كان المطعم بن عدى وحكيم بن حزام يذهبان بالطعام إلى المسلمين فى شعب أبى طالب وهما على شركهما .

ـــ وإذا أردت أن أعود إلى الإسلام فماذا على أن أفعل ؟

وجاء ضابط وانتهت المناقشة .

وعدت شاردا واجما أفكر فيما قاله المرحوم أحمد نصير ، وأنا أعجب كل العجب .

كيف يفكرون على هذا النحو ؟ ولا شك أن الحكومة هى التى غرست فى رءوسهم هذا التفكير بظلمها وانحرافها وجهلها .

فسدت العلاقة بينى وبين قائد المعتقل عندما علم أننى كنت أقوم بتهريب الطعام إلى زنازين شمال ، وضاقت نفسى بالمعتقل ومن فيه ، وفى ليلة كنت أتحدث فيها مع الدكتور حامد صفراطة ـــ وهو أستاذ فى كلية الهندسة جامعة الرياض الآن ـــ قلت له :

لابد أن أغادر المعتقل ، والليلة .

وضحك الرجل كثيرا وقال :

ـــ كأنك جالس على مقهى بلدى وآن وقت انصرافك إلى بيتك .

ـــ سوف ترى بنفسك . قف على الباب وارفع صوتك كالعادة « واحد مريض فى ١٢ يافندم » .

وكان هذا النداء يتكرر فى بعض الليالى ومعناه أن هناك شخصا مريضاً جدا ، ولا يستطيع فعلها إلا الشخص المريض جدا .

وبدت أمارات الاهتمام والجدية على وجه الدكتور حامد صفراطة :

ـــ وماذا بعدها ؟

ـــ لاشىء ، سوف أذهب إلى القصر العينى لأجرى عملية الزائدة الدودية .

ـــ ولكنك لست مصابا بها .

ـــ أستطيع أن أشرح أعراضها بدقة .

وارتفع صوت الدكتور حامد مجلجلا فى الليل :

ـــ واحد تعبان فى ١٢ يافندم .

وجاء الشاويش النوبتجى وفتح الباب وأخرجونى مسندا ، وأجرى الكشف علىَّ أحد أطباء الإخوان هو الدكتور أمجد صديق ثم استدعى زميلا له من الإخوان أيضا ، وأكدا أنها زائدة دودية . وجاءوا بالطبيب الرسمى من بيته فلابد أن يوقع على الأوراق التى تسمح بذهابى ، وأجرى الرجل كشفا دقيقا ، وسرعان ما ملئت الأوراق ووقعت وجاءت عربة الإسعاف وبعض الجند من قسم الترحيلات ، وقبل أن يبزغ الفجر كنت فى الطريق إلى القصر العينى .

كانت هذه أول مرة أغادر فيها المعتقل وما أن سارت العربة رافعة عويلها حتى اعتدلت فى جلستى بعد أن كنت راقدا وصرت أنظر من النوافذ فلا أجد غير الظلام الدامس يغطى أرض مصر .

ولا أريد أن أطيل فى هذه القصة ، فقد أجرى الكشف علىَّ ، وتبين للأطباء فى القصر العينى أننى متمارض ، ولما سألونى عن سبب ذلك قلت لهم إننى قادم من المعتقل ، وهى حياة لعينة وإجراء عملية الزائدة لن يضر ولن ينفع وهى فرصة لقضاء بعض الوقت معكم ، وافقوا مشكورين ، وأجرى العملية الدكتور هشام مورو إن لم تخنى الذاكرة ، وكان فاضلا ذا خلق ، أولانى عنايته ورعايته مدة تقرب من ثلاثة شهور ، وظل أياما طويلة يضع لى المطهرات على بطنى بعد أن شفى الجرح تماما لأبقى أطول فترة ممكنة فى معتقل القصر العينى ، وهو ليس تعبيرا مجازيا ، بل هناك معتقل بالفعل بمستشفى القصر العينى ، باب عادى تماما كأى باب تراه فى ممرات المستشفى ، ينتشر حوله الشرطة السريون ، ومن خلف الباب حجرات وعنابر وصالات وجند كثيف وضباط ، فمن تجرى له عملية جراحية ينزل إلى هذا المعتقل بعد يومين أو ثلاثة حسب درجة الخطورة ، ثم يذهب تحت الحراسة المشددة للغيار على الجرح ، أو للكشف أو لأى سبب تراه الإدارة مناسبا .

كان حديث الأطباء والممرضين والمرضى وكل الناس عن هزيمة خمسة يونيو ، وكيف خدعتهم الحكومة كل هذه السنين الطويلة ، ثم يكتشف الشعب أن وراء الستار لا يوجد غير الخواء والهراء ، وكان الأطباء ينظرون للمعتقلين نظرة مليئة بالاحترام والتقدير وقال واحد فيهم يوما :

ـــ أنتم الفئة الوحيدة من الشعب التى لم تستطع الحكومة خداعها ، ومكان أى وطنى صادق هو السجن أو المعتقل فى هذه الأيام السوداء ، نحن انخدعنا وانطلت علينا الحيلة اللئيمة التى استخدمت فى سرقة هذه البلاد ، أما أنتم فلا .

ومن مكانى فى معتقل القصر العينى رأيت بعض القادة العظام الذين قادوا الجيش إلى الهزيمة النكراء فى خمسة يونيو ، لقد جاءوا بهم كمعتقلين ، ليس بسبب الهزيمة ، ولكن بسبب ما سمى فى ذلك الوقت بمؤامرة المشير عبد الحكيم عامر ، وأودعوهم فى معتقل القصر العينى ربما لأنهم مرضى ، وربما إرضاء لخواطرهم وأذكر منهم اللواء عبد الحليم محمد عبد العال واللواء عصام خليل ، كانوا عددا يتجاوز العشرة بقليل ، ولا أدرى ماذا كان مصيرهم بعد أن غادرت المعتقل ، معتقل القصر العينى بطبيعة الحال .

وأثناء وجودى هناك قرأت خبر انتحار المشير عبد الحكيم عامر ، وتعجبت لماذا انتظر كل هذه المدة ليقتل نفسه ، فما دام يرى الانتحار مشروعا فكان عليه أن يفعله يوم خمسة يونيو ظهرا أو مساء فى أقصى تقدير ، وليس بعد ذلك ، ثم زال عجبى بعد أن عرفت أنه انتحر لسبب آخر ، واعتدلت الأمور فى رأسى أكثر عندما علمت أنهم قتلوه بالسم . ولله فى خلقه شئون .

وتأملت كيف يتشاجر هؤلاء الناس على الحكم ودم البلد لم يبرد بعد ؟ وكيف يرى كل واحد فيهم أنه أحق بالحكم من الآخر وهم الذين وضعوا رأس مصر والعرب فى الطين ،

يتقاسمون الجيش وينهبون السلطة ويشترون الأعوان ، ولا يأتى على بالهم ذكر ما فعلوه فى الأمس القريب .

ويقف الرئيس عبد الناصر ويخطب فى الناس خطبة يقول فيها معلقا على الهزيمة :

ـــ أنا المسئول عن كل ما حدث .

ويضج الناس بالتصفيق الشديد ، وترتفع الحناجر بهتاف يشق عنان السماء حتى اختلط الأمر علىَّ وظننت أن الهزيمة فى يونيو كانت مطلبا قوميا استطاع الرئيس بحكمته وحنكته أن يحققه ويريد عبد الحكيم عامر أن يسرق منه هذا الشرف !

الفصل العشرون

مصر تحكمها عصابة

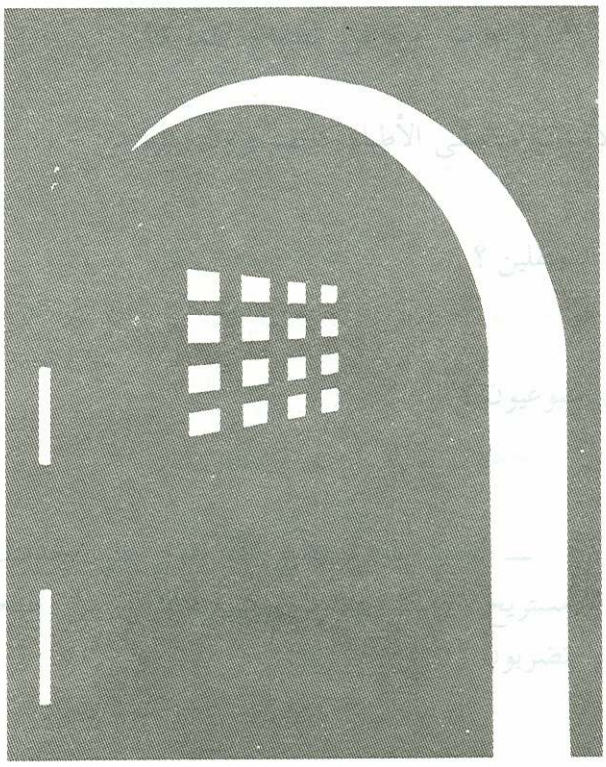

كانت مصر وأحوالها هى شغلنا الشاغل فى هذه الأيام ، وكنا نتعجب من عقوق من يفترض أنهم أبناؤها ، وكيف هانت عليهم وأذلوها ، ووضعوا رأسها فى الطين أمام العالم عن عمد واضح وترصد لاينكر ، وكنت أثناء وجودى بالقصر العينى ألتقى بالناس من مختلف الطبقات : الأطباء والمرضى وزائريهم ، والحرس الذى يتناوب علىَّ فى غدوى ورواحى من معتقل القصر العينى إلى العيادة الخارجية ، حيث الغيار على الجرح أو علاج أى شىء آخر ، وكانوا قد نصحونى أن أعرض كل ما فى جسدى من علل لتطول فترة بقائى هناك ، وللأسف الشديد كان جسدى فى ذلك الوقت قويا لا يشتكى من علة ، وقلت للطبيب الذى نصحنى :

ـــ ماذا أفعل ؟ ليست بى علة .

ـــ فلنبدأ بالأسنان ، بلغ فى الصباح أنك تشكو من أسنانك وسأدبر أمرك هناك .

ونفذت أمره فى الصباح كما قال .

وفى عيادة الأسنان استقبلنى الأطباء كأنهم يرون زائرا من المريخ :

ـــ أنت من المعتقلين ؟

ـــ نعم .

ـــ إخوان أم شيوعيون ؟

ـــ إخوان .

ـــ الحمد لله نستطيع أن نقوم على خدمتك بضمير مستريح ، ماذا يفعلون بكم هناك ؟ هل صحيح أنكم تضربون ؟

ـــ يضربوننا بالأحذية .

ـــ هل هذا صحيح ؟ نحن لانصدق هذا .

ويرد زميله الذى يساعده :

ـــ ولماذا لا نصدق ؟ قد رأيت بنفسك الهزيمة المنكرة ، وكنا من قبل نسمع كلاما آخر مختلفا . حكامنا يخدعوننا ويكذبون علينا .

ـــ أسنانك سليمة للأسف ، قوية ليس بها عيب .

ويتبادل النظرات مع زميله :

ـــ ما رأيك ؟

ـــ نطلب أشعة على الأسنان ونستخرجها بعد عشرة أيام ، وعندها يفرجها المولى .

وتناول البطاقة التى أحملها معى ، وملأها كلاما وقال :

ـــ الأشعة بعد غد ، والنتيجة بعد ذلك بعشرة أيام ، مارأيك ؟

ـــ كتر خيرك .

ويرد زميله متحمسا :

ـــ وربما يفسد الفيلم فنعيدها من جديد .

ـــ هذا عظيم والله .

ويقول الطبيب وهو يناولنى البطاقة :

ـــ أخبرنى . ما رأيك فى النكسة ؟

وأقول له :

ـــ ما رأيك أنت ؟

ـــ شيء فظيع كأنه حلم ثقيل . الناس لاتصدق ماحدث ، مازالوا لا يصدقون .

ويتدخل زميله :

ـــ أخبرنى . هل صحيح أنكم أعددتم مؤامرة لقلب نظام الحكم ؟

ـــ غير صحيح بالمرة .

ـــ ولماذا قبضوا عليكم ؟

ـــ هذا موضوع طويل الشرح .

ويقول الطبيب الأول لزميله :

ـــ إنت عارف ياحسن ، الحكاية إن فتوة فى حى بلدى ومتضايق من أحد الناس فهو يلفق له قضية ، يدس له مخدرات ، ويبلغ عنه فيقبضون عليه ويرتاح منه .

وقلت له مبتسما :

ـــ هذا ما حدث بالضبط .

ويندفع متحدثا متحمسا :

ـــ شغل عصابات ، مصر تحكمها عصابة .

وقلت له مهنئا :

ـــ قد عرفت السر . مصر تحكمها عصابة .

سمعت هذه العبارة من ذلك الطبيب الشاب الذى بذل جهده فى استبقائى بعيدا عن المعتقل رحمة بى ، ومساهمة منه فى تخفيف آلام المعتقلين ، وسمعتها من كثيرين فى تجوالى بين العيادات المختلفة ، فقصتى مع الأسنان استمرت شهرا كاملا ، فقد أعيدت الأشعة مرة ثانية ، ثم نصحونى بإجراء جراحة لاستخراج ضرس العقل ، وقالوا إنها عملية مثل الزائدة الدودية لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تبقيك معنا أياما

طويلة ، وبعدها يفرجها المولى . وبعد أن انتهت العملية وآثارها صرت أفكر ماذا يمكن أن أستأصله من جسدى بشكل قانونى ؟ وبينما أنا أفكر وأجهد ذهنى ، جاءنى أحد الإخوان بمرآة هربها ليحلق ذقنه ، وكانت هذه من مزايا معتقل القصر العينى ، فنحن مرضى ويدللوننا قليلا ، وأمسكت بالمرآة له حتى فرغ من الحلاقة وقال لى :

ـــ ما رأيك ؟

ـــ لا بأس .

وأمسك هو بالمرآة لى وصرت أحلق ذقنى وشغلى الشاغل عملية جراحية جديدة تستبقينى أياما ، وسألته :

ـــ يا أخ حسين . ماذا يمكن أن أستأصله دون أن يحدث ضرر .

وقال مازحا :

ـــ هناك ما يمكن استئصاله وتستريح وتريح ، عقلك .

وكنت أحدق فى المرآة وأنا أحلق ذقنى ، وفجأة تركت ماكينة الحلاقة ،واختطفت المرآة منه ، وصرت أحدق فى وجهى الماثل على صفحتها وأنا أردد :

ـــ وجدتها وجدتها .

ـــ ماهى ؟

انظر فى عينّى .

ونظر حسين الحنفى دهشا فى عينى :

ـــ ماذا بهما ؟

ـــ ألا ترى شيئا غريبا ؟

وصار يحدق فيهما ويفكر :

ـــ أنا هنا لعلاج عينى من الماء الأزرق ، لهذا أنا خبير بالعيون ، ماهذا ؟ بالفعل هناك شىء غريب ، العين اليسرى بها بقعة بنية اللون فى حجم رأس الدبوس ليست موجودة فى العين اليمنى .

ـــ لم تكن موجودة من قبل .

ـــ ماهذا الكلام ؟

ـــ أنا لم ألحظها قبل ذلك ، فهى بالنسبة لى قد ظهرت اليوم .

ـــ ومن ثم سنذهب سويا إلى عيادة العيون من الغد .

* * *

وهكذا ذهبت إلى عيادة العيون ، وتفهم الأطباء الموقف ، وقالوا : تحليل وأشعات وفحوص ، ومزيد من الأيام فى جنة القصر العينى الوارفة الظلال ، ولا شك فى أن هذا المعتقل الموجود بالمستشفى كان من حسنات الثورة كما يؤكد جميع الذين ذهبوا إليه .

وكنت أسأل نفس الأسئلة فى كل مكان أذهب إليه ، وأسمع نفس الكلام ، والجملة بذاتها تكررت فى مواضع كثيرة ، مصر تحكمها عصابة ، وصرت أسمعها حتى نطق بها عبد الناصر نفسه فى خطاب عام كأنه كان يعبر عن ضمير الأمة ، ويشعر بنبض الجماهير ، فهو يعرف ما يفكر الناس فيه .

عدت إلى المعتقل وتلقانى الإخوان بعد هذه الرحلة الطويلة ، وجلسوا إلَّى يسألوننى وكان انبهارهم شديدا بحكاياتى التى جئت بها ، مثل واحد قد عاد من أمريكا إلى قريته وهو يحدث أهله بما شاهده هناك ، وهم يستمعون إليه فى إعجاب وجلال .

واستنفدت قصصى وشغلنا جميعا بقصة المشير عبد الحكيم عامر وكانت تأتينا عبر الصحف التى تتسرب إلينا فقد ضعفت القبضة ، وملَّ الضباط ما يفعلونه بنا ، فهم يتغاضون عن بعض الممنوعات ، وشجعهم على هذا ماترويه الصحف كل يوم عن حكايات هى إلى الأساطير أقرب ، والناس يدركون بأنفسهم الجرح العظيم الذى انشق فى جسد مصر ، ومن بين الجرح يفور الصديد والقيح والنتن ، من بين حكايات المشير وشمس بدران وعباس رضوان وجلال هريدى ، وما لايقال من بين السطور ، وما يفهمه الأذكياء والعارفون ، قد صدق « الرئيس » فمصر تحكمها عصابة !

كنا نفكر فى المعانى التى تبرز من بين سطور قصة مؤامرة المشير ، وكنا نقارن بين حالهم وحالنا ، فقد شغلوا الدنيا بمؤامرة الإخوان عام ١٩٦٥ لقلب نظام الحكم ، وكنا نعرف الحقائق فنحن المتهمون وأدرى الناس بما جرى وكان . ولندع علمنا جانبا فنحن فى أى الأحوال متهمون كما قلت ، ولننظر فيما قالوه وأعلنوه للناس ، مجموعة من المهندسين والأطباء والمدرسين والمفكرين والفلاحين والعمال والطلبة ، لايتجاوز عددهم مائة كما أعلنوا ، اتفقوا على قلب نظام الحكم كما قالوا . ضبطوا عندهم بندقيتين ومسدسا ومدفعاً رشاشا ومائة سكين ، وعشر زجاجات كولونيا ٥٥٥ زعموا أنها متفجرات ، واعتقلوا بسبب هذا ثلاثين ألفا ، قتلوا منهم

عدة مئات فى التحقيق الوحشى الذى أجروه ، وقدموا للمحاكمة عددا لا يصل إلى المائة ، حكموا على خمسة منهم بالإعدام ، ونفذوا الحكم فى ثلاثة منهم ، وعلى الباقى بالأشغال الشاقة تبدأ من المؤبد وتنتهى عند سبع سنوات ، ومن لم يقدم إلى المحاكمة ظل فى المعتقل حتى ظهرت مؤامرة المشير ــ واستمرت بعد ذلك بطبيعة الحال ــ ومن يتأمل يدرك ، حتى لو صدقوا فيما زعموا وهم ليسوا بصادقين ، أن الجريمة إن كانت ثابتة حقا فلا ينبغى أن تكون العقوبة على هذا النحو من الوحشية ، ولكنه حكم العصابات كما قال رئيسهم عبد الناصر .

ولنتأمل فى مؤامرة المشير كما بينتها التحقيقات لندرك ماذا تعنى مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فالمؤامرة المزعومة للإخوان لا يمكنها الاستيلاء على قسم شرطة لو صحت ، أما مؤامرة عبد الحكيم عامر فنسبة النجاح فيها تتجاوز التسعين فى المائة ، ويتبين لنا هذا من أشخاص القائمين على الانقلاب والأدوات التى يملكونها والمال الموضوع تحت تصرفهم ، وإمكانيات التنفيذ المتاحة لهم بحكم موقعهم من الحكم ومعرفتهم بالخفايا والأسرار . فهم مثلا كانوا قد أعدوا خطة لخطف عبد الناصر ، وكان يمكن لها أن تنجح ، فقد قام بالتفكير فيها شمس بدران وزير الحربية ، وهو يعرف أين يبيت عبد الناصر ، ويعرف مكانه بدقة ، وعلى علم بكل التفاصيل ، وهو يتردد عليه فى بيته للصلح بينه وبين عبد الحكيم عامر ، فمن السهل عليه كما ثبت فى التحقيقات ، أن يخفى مجموعة معه بالرشاشات ، ويرغم عبد الناصر الذى كان يوصله حتى باب السيارة على الركوب معه والذهاب إلى أى مكان .

يوم تنفيذ المؤامرة كان الجيش على حاله التى تركه عليها عبد الحكيم عامر ، نفس القيادات التى صنعها بنفسه ، استجابت له المخابرات وعلى رأسها صلاح نصر فهى تعد مجموعات الاعتقال ، وهى تعرف أين تجد من تريد اعتقاله .

الفرقة الرابعة المدرعة تنتظر المشير غرب القناة ، ليقودها منصورا فى استيلائه على الحكم فى القاهرة .

كل قيادات الجيش وضعت نفسها تحت تصرف المشير ، وعلى استعداد لتنفيذ أوامره

البوليس الحربى جاهز لتأمين القاهرة ، كانوا يملكون الجيش فى وحداته المنتشرة هنا وهناك .

وكانت هناك سبائك الذهب ، وعشرات الألوف من الجنيهات التى قدمها عباس رضوان ، ووضعها تحت تصرف المشير ، ولا أدرى من أين جاء بها ، ويبدو أن نظام الحسابات لم يكونوا يعرفونه ، فأموال البلد هى أموالهم ، وهم يتصرفون فيها بالشكل الذى يريدون .

ضبطت فى مقر قيادة المؤامرة ــ منزل المشير عبد الحكيم عامر ــ مطبعة كبيرة بالإضافة إلى الأسلحة الآتى بيانها :

٣٤ قاذفا صاروخيا مضادا للدبابات .
١٨٧ بندقية آلية .
٣٢٠ قنبلة يدوية .
٧١ رشاشا .
٤ مدافع هاون ٨٢ مليمترا .
٤٦١ مسدسا .
٢٩٤ صندوقا من الذخيرة .

هذه الأسلحة للقتال فى شوارع القاهرة إن لزم الأمر ، ولست أدرى : أى منزل هذا الذى يحتمل هذا القدر من الأسلحة ؟ ربما كانوا يضعون مدافع الهاون فى الصالون والأنتريه بدلا من « الفازات » ، فهو منزل المشير . والأسلحة التى حازوها استعملوها ، مرة عندما أرادت السلطات القبض على جلال هريدى فأطلق عليهم الرصاص ، وأسرع عدوا ناحية البيت المذكور ، وقامت القوات المتحصنة بتأمينه وأمطروا المهاجمين بوابل من الرصاص . وهم جادون فيما يريدون ، فالجيش والطيران والبحرية فى انتظار الأوامر.

وأفسد المشير عبد الحكيم عامر كل شىء بسوء تدبيره وعدم حنكته ، فقد دعاه عبد الناصر ، ونُصِح بعدم الذهاب ولكنه ذهب ، ووجد فى المنزل زملاءه القدامى من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين كانوا على ولاء مع عبد الناصر واستُبْعِد المناوئون ، وحاكموه ، لا أدرى كيف ، وحكموا عليه بالاعتقال وتم ذلك ، وفى الوقت نفسه كانت قوات الفريق محمد فوزى تحاصر منزل المشير الذى لو لم يذهب فى هذه الزيارة لكنا الآن نشق الفضاء بهتافاتنا التى لاتنقطع :

يعيش الرئيس عبد الحكيم عامر منقذ مصر .

ولكانوا قد أقنعونا بأننا انتصرنا فى ٥ يونيو .

ولله فى خلقه شئون .

قدم للمحاكمة فى هذه القضية مائة ضابط عظيم ، يكفى خمسة منهم لعمل الانقلاب وإنجاحه ، وكانت كلها أسماء كبيرة .

المتهمون الاثنا عشر الأول كالتالى :

سبعة تتهمهم النيابة بتزعم التنظيم العسكرى المسلح الذى أعد لقلب نظام الحكم ، وهو تنظيم عسكرى مسلح بالفعل لأنه الجيش المصرى ، أو ما تبقى من الجيش المصرى فقد كانت هذه الأحداث بعد شهر من الهزيمة .

أما أسماء السبعة فهى :

شمس بدران	وزير الحربية
عباس رضوان	وزير الداخلية
صلاح نصر	مدير المخابرات
جلال هريدى	قائد قوات الصاعقة
عثمان نصار	أحد اللواءات
أحمد عبد الله	من قوات الصاعقة
تحسين زكى	من قواد سلاح الطيران

وخمسة اعتبرتهم النيابة فاعلين أصليين فى محاولة قلب نظام الحكم وهم .

حسن مختار .
محمد حلمى عبد الخالق .
محمد عبد العزيز الحسامى .
سعيد عثمان مصطفى .
محمود فتحى الريس .

يعنى باختصار قادة الجيش وقواد الألوية والفرق ، وبعد ذلك ضباط عظام أقل رتبة فيهم مقدم أو عقيد .

وقد بدءوا بمظاهرة عسكرية يوم ١١ يونيو بالمدرعات التى أبقوها فى القاهرة لحراستهم واعتقال الناس ، وطالبوا ببقاء القيادة العسكرية القديمة .

لم يفكر واحد منهم فى ذهاب هذه المدرعات إلى الجبهة ، لأنهم كما يبدو لا يتقنون غير المؤامرات أو الاعتقال والسلطة أو الحكم هو مطلبهم الأسمى .

حملت الأسلحة التى وضعت فى ست سيارات لورى ضخمة ، وكانوا قد ضبطوا أثناء عملية اعتقال القوة المتحصنة فى منزل المشير سبع سيارات لورى أخرى قادمة محملة بالأسلحة ، ومازلت أتعجب أين يمكن أن توضع هذه الأسلحة فى بيت من البيوت مهما كبر وعظم ؟ والظن أن هذا البيت كان يمكن له أن يستوعب كل أسلحة الجيش ما عدا الدبابات .

وقالوا إن الخلاف بينهم وبين عبد الناصر حول الديموقراطية التى ضاعت ، والحرية التى أهدرها ، وكرامة الفرد التى مُسحت بها الأرض .

إى والله هكذا قالت منشوراتهم !

ولا ندرى من نصدق ، ولعل كلا الجانبين صادق .

أنصدق شمس بدران الذى قال أمامى يوما أثناء التحقيقات :

ـــ أنا مفوض من الرئيس عبد الناصر فى قتل من أشاء ، ولو قتلناكم جميعا ما شعر بكم أحد ، وما اعترض على ذلك إنسان .

ولاشك أن تلخيص المؤامرة واجب ، لأن هذا يساعد على التخيل الصحيح .

كان من المقرر أن ينتقل عبد الحكيم عامر ومعه بعض كبار أعوانه ممن ذكرت إلى القيادة العامة بمنطقة القنال ، ويتم هذا بمعرفة فرقة من الصاعقة ، التى كان ينبغى عليها أن تكون فى القتال مع العدو الإسرائيلى ، ويتولى قيادة هذه الفرقة أحمد عبد الله ، ويتم الاستيلاء على القيادة ، ويسهل بعد ذلك إلقاء الأوامر .

فى نفس الوقت ينتقل شمس بدران وزير الحربية إلى مقر الفرقة الرابعة المدرعة للسيطرة على القاهرة واحتلالها .

فى نفس الوقت ينتقل اللواء عثمان نصار إلى مقر قيادة القوات البرية المعسكرة فى دهشور حيث كان يعمل ، وحيث يوجد كل الضباط الذين تحت قيادته ، ويتم تحريك بعض هذه القوات لمساعدة شمس بدران فى السيطرة على القاهرة.فى نفس الوقت يقوم عباس رضوان بدور الحاكم العسكرى العام للقاهرة ، ويقوم بتأمينها والسيطرة على وزارة الداخلية ، حيث كان يعمل ، وإدارة جهاز المخابرات بتفويض من صلاح نصر الذى أعد له المجموعات الخاصة التى كانت تجيد القبض والاعتقال .

وأثناء ذلك يتولى تحسين زكى قائد القاعدة الجوية بانشاص بتأمين كل هذه التحركات بما تبقى من أسراب الطائرات ، ويبدو أن سلاح الطيران لم يتحطم بالكامل كما أرجفت بذلك إسرائيل ، وكان من واجبات تحسين زكى تجهيز طائرة هليوكوبتر تكون معدة فى مطار أبو صوير لتحركات رئيس الجمهورية الجديد . ولذلك تفصيل طويل . .

* * *

كنا نقرأ هذا الكلام ونسمع به ونحن رغم كل مبررات التصديق لانكاد نصدق ، هل يمكن أن يكون ذلك صحيحا ؟ وكان ذلك صحيحا .

وبعد ثبوت التهمة على المتهمين قدموا للمحاكمة .

وتذكرت عندما استدعيت ليلة من ليالى الشتاء القارس فى السجن الحربى لمقابلة شمس بدران ، وكيف سمعت حوارا بينه وبين أحد الضباط المعتقلين من رجاله فى قضية لا صلة لها بالإخوان ، وكيف قال له إن عنده محكمة فى الغد ، وعليه ألا يناقش رئيسها كثيرا ، فالحكم بالمؤبد ، ووعده بالذهاب إلى بيته فى وقت قريب ، وكل ما هو مطلوب منه هو الأدب ، الأدب أثناء المحاكمة وبعدها ، وطمأنه على مستقبله أثناء السجن وبعده .

وكان هذا ما حدث للمتهمين ، محاكمة فأحكام لا معنى لها ، فلندن فالتجارة فى الملايين المنهوبة ، والأمن والأمان بعيدا عن أى إنسان .

وتأملت عندما قرأت فى الصحف عن واحد من المقبوض عليهم فى هذه القضية وكيف وجدوه مقتولا فى شقته بلندن ، وفى الشقة مليون جنيه استرلينى فى حقيبة من الحقائب ، والله وحده يعلم ماذا فعل هؤلاء الناس بمصر ، وكم نهبوا من أموالها .

لم يُعدم واحد ، هذا إذا استثنينا المشير ، فهو من المنتحرين .

كانوا يرتدون الملابس الغالية الثمن وهم فى طريقهم إلى المحاكمة .

وكان منهم من يتطاول على رئيس المحكمة ، ويتهمه بالجهل ، وأنه كان (طرطورا) لا يعرف شيئا عما يدور ، وهو نائب لرئيس الجمهورية .

وكُشِفت أسرار وانزاحت أستار ، وقالوا الكثير والكثير .

وظن بعض الكتاب أن هذه المحكمة وإعلان هذه التفاصيل معناها إشارة البدء فى سبهم ولعنهم ، وكان هذا الكاتب من المدربين الذين يحسنون التقاط الإشارة ، وكتب فى الصفحة الأولى عن الذهب المنهوب من الشعب المصرى الغلبان ، والأسلحة المسحوبة من ميدان القتال للاستيلاء على الحكم ، ولم يفهم المسكين أنه حكم العصابات .

وفى خطاب عام أنب عبد الناصر وعنف ذلك الصحفى لاجترائه فى الحديث عن هذه المثالب ، وقال لا تنسوا أنهم وضعوا رءوسهم على أكفهم ليلة الثورة للحصول على هذا الذهب وتلك الأموال .

وما هى إلا أيام حتى رفت الصحفى وطرد من وظيفته .

لاينبغى لأحد من خارج العصابة أن ينتقد الفتوات ، حتى لو اختلفوا فيما بينهم ، هذا حق شيخهم وحده ، وغيره ممنوع من هذا .

كنا فى معتقلنا نتأمل الحوادث ونمتلىء بالقهر والغضب ، ولا نملك غير الصمت والصبر وانتظار الأيام .

وكنا نقرأ عن الحرية والديموقراطية التى يزمع « الرئيس » أن يمكن الشعب منها ، وكيف أن يده كانت مغلولة ، فهو يريد الخير وتحول بينه وبين تحقيقه مراكز القوى ، وهو اسم عجيب أطلقوه على من يتمرد من العصابة على الزعيم .

ثم طبلوا وزمروا ببيان ٣٠ مارس ، فهم يعلمون أن حاجة الشعب عارمة للكلام ، وعليهم أن يبيعوه كلاما ، هكذا عودوه وهو لا يعيش بغيره .

وبدأ التمهيد فى الخطب والمقالات لتحويل الهزيمة فى يونيو إلى نصر .

سموها نكسة ، ثم قالوا هى المعركة الأولى من سلسلة معارك مع العدو الإسرائيلى ، وهذا هو حال الحروب فى التاريخ ، ونحن شعب جاهل لا يفهم معنى المعارك ، ولو كنا على ثقافة ووعى لعلمنا أن الحروب هكذا ، معركة نخسرها ، وأخرى نكسبها ، والترتيب غير مهم .

ثم بدءوا يعزفون على وتر النصر ، فقالوا إن إسرائيل لم تحقق غرضها فى تلك المعركة ، تلك المعركة الصغيرة التى نبالغ فى تقدير حجمها دون وعى ، فقد كان العدو يريد تغيير القيادة السياسية وفشل فى هذا ، ومن ثم لم يتحقق غرضه فى العدوان ، وإن الإرادة المصرية قد انتصرت على الجيش الإسرائيلى ، وأن جماهير ٩ ، ١٠ يونيو قد أثبتت أن مصر لايمكن أن تهزم وإننا شعب سخيف لا يفهم الفرق بين النكسة والهزيمة ، وليس المهم هو تحرير الأرض ولكن تحرير الإرادة ، وما الجيش ؟ ماهو إلا بعض الأدوات من الحديد ، وجمع من الناس قد ارتدوا الملابس « الكاكية » ، وبالإرادة وصداقة الاتحاد السوفيتى نستطيع أن نأتى بهذه الأدوات من الحديد ، أما الناس الذين ماتوا فخيرا فعلوا ، فنحن مصابون بتضخم سكانى !

كانت هذه هى النغمة ، وكان ذلك هو العزف ، عزف سقيم لا يطرب ، ولا يثير غير المرارة والاحتقار ، فى أمة قد هانت على نفسها وعلى أسيادها وفقدت كرامتها ، ومرغ شرفها بالوحل ، وغاب أبناؤها فى غياهب السجون .

وهمُّوا أن يعلنوا انتصارنا فى يونيو لولا تواتر الأحداث .

* * *

ويقول لى واحد من المعتقلين من السياسيين القدامى وليس من الإخوان :

ـــ هل كنتم تتآمرون على قلب نظام الحكم عام ١٩٦٥ ؟

ـــ كلا بالطبع .

ويتمتم الرجل فى مرارة :

ـــ ليتكم فعلتم .

وأنظر إليه فى دهشة :

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ لو أن انقلابا حدث فى عام ١٩٦٥ ، وتغير نظام الحكم فى مصر لتجنبت البلاد الكارثة التى حلت بها . أنتم لا تعلمون حجم ما جرى فى ٥ يونيو .

ـــ بل نعلم .

ولكنه استطرد شاردا حزينا :

ـــ إن ما حدث فى يونيو أمر عظيم ، سوف يفرض نفسه على مصر والعرب ، وهو أمر له ما بعده ، فهو يغير السياسات

والآفاق التى ينظر إليها العرب بمن فيهم مصر ، وإن أثر ما حدث لن يتغير قبل جيلين كاملين . ولن يبدأ التغيير قبل أن نتخلص من هذه الحكومة ومن ذيولها ، وهو أمر لن يجدى فيه غير الزمن ، مائة سنة غير كافية لإصلاح ماحدث ، أنتم حقيقة لا تعلمون من يحكم مصر .

وتفرست فيه وأنا أسأل :

ـــ ومن يحكم مصر ؟

ورد على فى برود وحزن :

ـــ مصر تحكمها عصابة .

ويممنا صوب العنابر فى صمت ، فقد كانت صفارة الشاويش تعلن انتهاء الطابور .

الفصل الواحد والعشرون

مهرجان
الحرية والاعتقال
معتقل طره السياسى

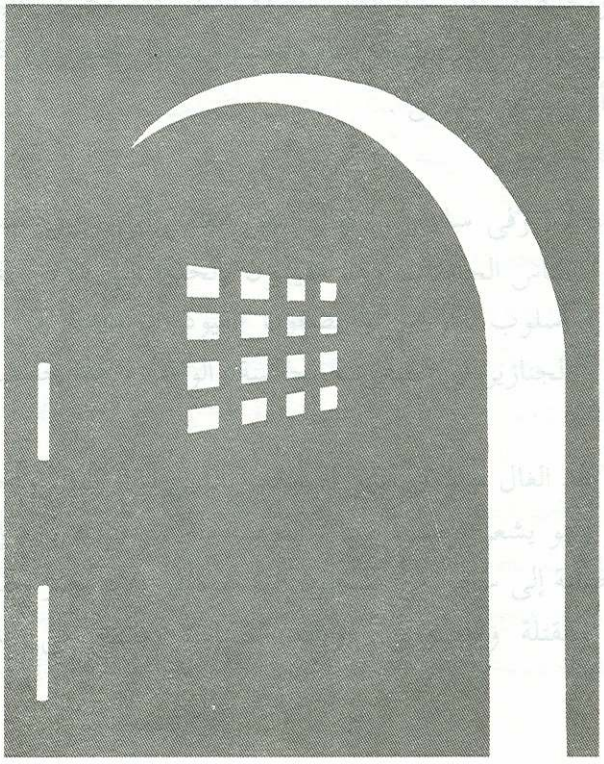

كانت الإدارة تشعر بسخف تصرفاتها مع المعتقلين - رغم الأوامر المشددة - التى تقضى بالمضايقة ومزيد من القرف والإيذاء ، فالضباط كثيرا مايتهاونون فى تنفيذ ما يطلب منهم احتقارا للحكومة ، وقد عبر بعضهم أحيانا عن هذا الاحتقار ، ولكنه لايستطيع أن يفقد وظيفته ، وربما ضموه إلينا كمعتقل ، فهى أيام يجوز فيها أى شىء ، والضباط خير من يعلم هذا بحكم اطلاعهم على مايدور وراء الكواليس من عجائب .

ويبدو أن مشاكل الصراع حول السلطة فى القمة جعلت القائمين على أمر المباحث يشعرون بمتغيرات يمكن أن تكون ، وأن فى هذه المتغيرات مستقبل بعضهم وربما حياته ، فالجميع يعيشون أياما لا يؤمن جانبها ، والعاقل من لا يأمن جانب الأيام أبدا ، ومن ثم: فقد قرروا انتقال المعتقلين الموجودين فى أبى زعبل إلى طرة السياسى وتخليصهم من عبد العال سلومة الذى كان يجرى عليهم تمارينه لحساب المباحث بشكل عام ولحسابه بشكل خاص ، وكان يبالغ فى أداء هذه التمارين .

وفى ساعة من نهار صفى معتقل أبى زعبل السياسى ، وركب الناس الحافلات وهم مقيدون بالحديد إلى طره ، فقد كان هذا هو أسلوب الترحيل ، يضعون القيود الحديدية فى اليدين ، وربما الجنازير فى الصفوف الجالسة والواقفة ، هذا حسب المزاج العام .

وصار عبد العال سلومة يعتذر للمعتقلين الذين أساء إليهم واحدا بعد الآخر وهو يشعر بحسرة ضياع الفرصة منه ، وعودته ثانية إلى وظيفته الأصلية إلى سجن من السجون المنتشرة فى بلاد مصر حيث المجرمين والقتلة واللصوص ، ويلفه الضباب ويضيع فى عالم النسيان .

والغريب أن هذا الأمر قد حدث معه عدة مرات ، يتمكن فيطغى ، ويسلب المكانه فيندم ثم يعتذر ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم كاذبون ... ماعلينا من هذا .

وجدنا أنفسنا فجأة فى معتقل مزرعة طره السياسى ، وهو عالم يختلف تماما عن أبى زعبل .

الأسوار والأبراج والحرس الشديد كأى سجن أو معتقل فى مصر المحروسة ، وفى داخل الأسوار توجد العنابر – عنبر واحد واثنين فى مبنى واحد على اليسار ، وعنبر ثلاثة وأربعة على اليمين ، فإذا أردنا الوصف بدقة فإن الداخل يدخل من كوة صغيرة فى بوابة ضخمة ، وفور الدخول غرفة قائد المعتقل على اليمين ، وعلى اليسار غرفة نائب القائد ، ثم على اليمين حجرتين تقابلهما مثيلتهما على اليسار ، وهى غرف للضباط وللإداريين والخدمات المختلفة ، ثم بوابة أخرى تخرج منها فتجد أمامك فى منتصف مربع المعتقل مبنيين خلف بعضهما الأول يشمل المطبخ (والكانتين) والمسرح والملاحظة:والملاحظة هذه : عبارة عن عنبر كبير يوضع فيه أنصاف المرضى ، وخلف هذا المبنى يقع مبنى المستشفى ، وبين المبنيين ساحة تتسع لاجتماع أكثر من ألفى شخص . وعلى يمين الداخل ويساره تقع العنابر التى ذكرت ، واحد ، واثنان ، وثلاثة ، وأربعة ودخلنا أول ماوصلنا إلى عنبر ٣ ، ٤ ، وكما قلت فهما مبنى واحد له باب قضبانى ، يفتح فيدخل الداخل – وقانا الله السوء –

فيجد على اليمين عنبر ثلاثة وعلى اليسار عنبر أربعة ، وكان من نصيبنا هو عنبر ثلاثة ، حيث توجد ثلاث حجرات كبيرة على اليمين ، وأخرى مثلها على اليسار ، وفى آخره بوابة حديدية أخرى تفضى إلى ساحة صغيرة تنتهى بدورات المياه ، عشرة عيون لم تكن

بينها حواجز ، وجاهد الإخوان سنين حتى وافقت الحكومة على السماح لهم بعمل حواجز من الصاج على حسابهم . وفى داخل العنبر توجد بجانب الغرفات الكبيرة أربع (زنازين) انفرادية ، على يمين الداخل إلى عنبر ثلاثة ، وعلى يسار الداخل إلى عنبر أربعة .

وكل المبانى من دور واحد ، يرتفع السقف فى الحجرات إلى أكثر من أربعة أمتار ، وسمك الحائط حوالى متر ، يظهر من النافذة القضبانية ذات القاعدة الحائطية المائلة فلا تسمح لشىء بالاستقرار عليها إنسانا كان أم جمادا . ولاتستخدم هذه النوافذ إلا للتبريد ، حيث يلف الوعاء (البلاستيكى) بقطعة من الخيش مبلولة وتربط بحبل فى قضبان النافذة وتترك ، ثم تمد بالماء كلما جف الخيش ، ومن ثم يتم الحصول على ماء بارد يمكن أن يستخدم فى صنع مشروب مشهور اسمه « ساكوُ » ، بالتشديد على الكاف ، وهو عبارة عن ماءمضاف إليه عسل أسود ، وترج الزجاجة قبل الاستعمال لتوفير الرغوة التى تجعل شكله غريبا بعض الشىء ، وطعمه أغرب ، ولكن لابد من شرب شىء مامن باب التغير وكسر المألوف ، أو كما قال الجميع .

وجدنا الحياة فى معتقل طره السياسى مختلفة تماما عن مثيلتها فى أبى زعبل ، فكنا وكأننا هبطنا جزيرة فى وسط المحيط بعد أن غرق المركب كما تروى أساطير ألف ليلة وليلة ، أول ماطالعنا فى هذا المعتقل هو قائده العميد « ناصف مختار » ، وهو شخصية عجيبة بالفعل ، أولا هو رجل من أقباط مصر ، وأغلب المعتقلين من الإخوان المسلمين وعلى عكس ماتوقعنا ، كان ودودا كريما متبسما دائما ، يحاول جهده التخفيف عن المعتقلين فى حدود صلاحياته ، ويتجاهل كثيرا من المخالفات والممنوعات رغم ذكائه الشديد ، وكان بوجه عام أفضل ألف مرة من عبد العال بك .

قابلنا الرجل باسما وقال لنا :

– تذكروا شيئا هاما ، أنا لم آمر باعتقالكم ، ولامصلحة لى فى ذلك ، وأود لو تخرجون إلى بيوتكم ، ولكنى هنا حارس وبواب ، أنفذ أوامر الحكومة كما تعلمون ، وأريد أن تجنبونى المشاكل وتجنبوا أنفسكم كذلك ، خير لكم وخير لى . لاأفهم فى السياسة ولا أحب الحديث فيها ، افعلوا ماتشاءون فى حدود النظام والقانون ، تكلموا بما تشتهون ، لادخل لى بكم ، ماأنا إلا حارس كما قلت ، وأدعو الله ألا تطول إقامتكم هنا ، فالسجن شىء مؤلم ، ولو أنى سجين معكم نصف الوقت بحكم عملى وأنا على استعداد تام للاستجابة إلى مطالبكم ، فى حدود النظام والقانون ، تفضلوا مشكورين ، أتمنى لكم إقامة سعيدة . هكذا كان استقبال الرجل لنا ، كأننا فى استقبال فندق أربعة نجوم وربما خمسة ، ثم قادنا (شاويش) أنيق يحمل المفاتيح ، وفوجئنا بمن يتقدم ليحمل أمتعتنا : أناس يرتدون الملابس الزرقاء ، عرفنا بعد أنهم من المساجين الذين جاءوا بهم لخدمة المعتقل ، فهم يقومون بعمليات النظافة الشكلية والخدمات بوجه عام ، ثم يعملون لحسابهم ، هذا بعلم الإدارة وسكوتها عن ذلك ، فهذه أمور لاتعنيها .

والنقود ممنوعة فى المعتقل ، وكان من الضرورى وجود بديل ، وكانت السجائر هى البديل ، فالمسجون يحمل الأمتعة حتى باب الغرفة داخل العنبر بسيجارة ، وربما حمل أمتعة شخصين بالأجر نفسه ، ويقومون بخدمات كثيرة أخرى .

وكان هذا من المفاجآت العديدة التى توالت علينا فى اليوم الأول من أيام إبريل عام ١٩٦٨ حيث حللنا هناك ، فكان من الممكن لذوى اليسار أن يتخذوا خدماً من هؤلاء المسجونين ، وكان الأجر زهيدا جدا فهو فى اليوم الواحد خمسة (سجائر) بلمونت أو

كليوباترة صغيرة هذا فى حالة الاستمرار ، فهو قاعد عند باب الغرفة يلبى طلباتك وينفذ كل أوامرك ، وكان ذوو اليسار قلة فى المعتقل .

دخلنا العنابر واستقر كل واحد فى غرفته ، وتقسيم الأماكن فى الغرفة شبيه بالنظام فى معتقل أبى زعبل ، ولكن المعتقلين هنا يختلفون ، فقد فوجئنا بقوم قد علتهم سمرة الشمس من استمتاعهم بها طوال النهار ، وظهروا أمامنا كأنهم وقد صارت مهنتهم الاعتقال ، يختلفون عنا كثيرا ، نحن قد جئنا والجدل السياسى والدينى لاينقطع لحظة من نهار وجانب كبير من الليل ، فالقضايا السياسية والدينية حية فى نفوسنا ، وهى تظهر فى كلامنا العادى ، وفى نظرتنا إلى كل شىء ، كانت ضغوط الإدارة وعبد العال سلومة تجعلنا فى حالة استعداد دائم ، متأهبين للخطر ، الإسلام هو محور حديثنا ونقاشنا ، أما أهل طرة فكانوا ينظرون إلينا أيضا – فى أول الأمر – كمخلوقات عجيبة قد أتت من عالم غريب ، فهم متمدينون متحضرون ، ونحن مازلنا بعبق الريف فأقدامنا مشققة والطين ينفذ من بين أصابعها ، وعلينا أن نفهم النقلة الحضارية الهائلة التى قفزناها من أبى زعبل إلى طرة .

وماهى إلا أسابيع حتى انتشر عبق الريف فى كل أرجاء المعتقل ! رغم اختلاف كل شىء عند حضورنا كما قلت !

وجدت أساتذتنا القدامى فى مدرسة الإخوان ، ودعيت إلى طعام الغداء فقد آن أوانه عند حضورنا ، وفوجئت بالطعام ، وبالفعل كان صدمة ، لم أتخيل أن يوجد فى معتقل طعام بمثل هذه الفخامة وارتفاع المستوى وإليكم القائمة :

ديك رومى .

أرز بالخلطة .

بوفتيك .
كباب حلة .
سمك مشوى .
مكرونة فرن .
سلطات فاخرة .
تفاح أمريكانى .
بسبوسة .
حلوى أخرى مازلت لا أتذكر اسمها .

تناولت الغداء فى انبهار شديد وانفعال أشد ، وتأملت فقد كان كل من بالغرفة يأكل من نفس الطعام ، وهم يجلسون كما كنا نفعل أيام أبى زعبل ، وهناك مسئول يقوم بتوزيع نفس الأصناف – التى ذكرت – على جميع الناس ، وهذا ماوعته الذاكرة من الأسماء بعد مرور كل تلك السنين ، فقد كانت هناك أصناف أخرى بالإضافة إلى ماذكرت بالتأكيد .

وانتهيت من الطعام ، وفوجئت أن هناك من يصنع الشاى ، نعم هناك من يصنع الشاى ، أكررها لأن المنظر كان غريبا ومبهجا ، موقد قد تم تصنيعه فى المعتقل من علب الصفيح المتخلفة عن المشتريات ، قد صممه واحد من المعتقلين وله شرائط قد صنعت من خيوط ملابس المعتقل ويوقد (بالشل توكس) الذى يأتون به للقضاء على الحشرات ، والشاى يأتيهم رغدا من كل مكان .

وانتحيت أهمس لمحدثى الذى استضافنى :
– لكم حق ألا تهتموا بالسياسة ، هذا طعام طيب !
– هذا لايكون كل يوم ياصديقى .
– ومتى يكون ؟
– حسب التساهيل .
– لاأفهم !

– اليوم زيارات ويأتينا الطعام فيها ، الأهل يعدون ماعندهم ، ويأتى الأخ من الزيارة ، ويسلم ماجاءه من طعام للمسئول عن العنبر ، ويتولى هو توزيعه ، واليوم كان عدد أصحاب الزيارة من هذه الغرفة كثير .

وامتلأت دهشة :

– يأتيكم طعام فى الزيارة ؟

– أو لم يكن يأتيكم مثله فى أبى زعبل ؟

– كلا .

– هذه هى تصرفات عبد العال سلومة – عليه لعنة الله – هنا ناصف بك لايهتم بهذه الأمور ، فهو يتركنا نفعل مانشاء ، والحكومة نائمة لاتعرف مايدور ولايعنيها .

– هذا والله جميل جدا . ولكن ، الشاى ! من أين تحصلون عليه ؟

– ستكتشف المكان بنفسك ، هنا يمكنك شراء أى شىء ، وتستطيع الحصول على ماتشاء ، ماعدا الإفراج ، هذا بإذن الحكومة .

– هو بإذن الله .

ومكثنا أياما ندور فى حجرات المعتقل ونتكلم مع الناس فقد كان هذا مسموحا به ، ونمضى معظم وقتنا فى الشمس التى حرمنا منها سنين ، والناس يتحفظون فى الحديث معنا ، فنحن فى نظرهم متشددون نرفض التفاهم والحوار مع الحكومة ، وقد كانت هذه هى السمعة التى سبقتنا إلى طره ، والأمور نسبية بطبيعة الحال ، وكان أهل معتقل طره الاصليون، هم الذين نجوا طول الوقت من التعذيب الوحشى الذى حدث فى المعتقلات الأخرى ، والأمور تحكى لهم كأنها قصص أسطورية لم يعاينوها أو يشاهدوها .

وكانوا فى أول الأمر يتحفظون فى جدالنا والكلام معنا ، وسرعان ماوجدوا أننا مثلهم لانختلف كثيرا فى الرؤية والتصور ، وكان الوقت هو العامل الحاسم فى الانسجام والتفاعل ، حتى صار الجميع شيئا واحدا بعد أسابيع قليلة ، وتحول معتقل طرة إلى صورة مكبرة من أبى زعبل .

اكتشفنا فى أول صباح مرَّ بنا فى طره أن الفول المدمس هو طعام الإفطار وكان هذا ممنوعا فى أبى زعبل ، أما فى طرة فالأمر يختلف لاتوجد أية ممنوعات بالنسبة للطعام والشراب ، فالمعتقل يدار إدارة كاملة من جانب المعتقلين ولا تتدخل الإدارة إطلاقا فى هذه الشئون إلا لتدبير مايطلبه الناس من مواد أولية ، فتأتى للمعتقل يوميا أو أسبوعيا المواد التى تصرفها الحكومة لطعام المعتقلين الذين يقومون على طهية وتقديمه فى نظام دقيق ، فالأرز يوزع على العنابر كل يوم ليتم تنقيته قبل الطهى ، وكذلك الفول ، ثم يجمع ليقوم فريق على إعداده ، وهناك مطبخ كبير يقوم بالخدمة فيه فريق من المعتقلين الاختصاصيين فى الطهى يعاونهم عدد من المسجونين ، ولأول مرة فى تاريخ الاعتقال نتناول لحما مطهوا مما يصلح للاستخدام الآدمى ، فقد كان اللحم فى أبى زعبل نتن الرائحة ، وكانوا يتعمدون تركه حتى يفسد وتظهر رائحته ثم يقدمونه لنا هنيئا مريئا ، وكانت هذه الطريقة مما يتفتّق عنه ذهن عبد العال سلومة

(الكانتين) فى طرة عبارة عن (سوبر ماركت) يبيع كل شىء مما يمكن أن يكون موجودا فى أسواق القاهرة ، حتى معجون الأسنان ومعجون الحلاقة ، وسائر المعلبات ، الممنوع الوحيد هو الشاى ، فقد كانت أيامها أزمة فى كل بلاد مصر ، فالشاى لا يوجد بسهولة فى الخارج ، ورغم منعه كنا نحصل عليه فى سهولة ويسر ، ليس عن طريق « الكانتين » ولكن بطرق لا أعرفها ، وفى النهاية نجد الشاى عندنا فى الوقت الذى نريد .

وكان الطعام متنوعا ومختلف الأصناف من الزيارات أو من البيع والشراء ، والتكافل موجود ، فالذى لاتأتيه زيارة لافرق بينه وبين الموسر الذى تأتيه الأطعمة كل أسبوع ، وهناك من كانت تأتيه كل يوم ، والمسئول يوزع الطعام بالعدل والمساواة ، ولكل مجموعة من المعتقلين خمسة كانوا أو سبعة موقد ومطبخ صغير ، فهم يصنعون طعامهم كل يوم ، ويتفننون فيه ، ويجرون تجارب حول ذلك ، ويتفتق ذهنهم عن أصناف وخلطات لم تكن على البال ، ولكنها مقبولة المذاق والطعم .

وكنت تذهب زائرا إلى أحد الإخوان فى (نمرته) فيقدم لك الشاى أو القهوة أو ما يقدم فى البيوت كأنك تزوره هناك ، ثم يودعك إلى باب الغرفة وربما إلى باب العنبر .

والخضروات والفاكهة تأتى إلى (الكانتين) وتذهب وتشترى كيلو طماطم أو كيلو بلح أو ماتشاء مما هو موجود ، تشتريه بالسجائر أو عن طريق رسمى خلال دفتر فى يدك وصورة منه طرف الكانتين ، ثم يخصم من أماناتك ، وهى النقود التى لك عند الإدارة والمبينة فى دفتر آخر هناك .

وكانت دعوات الطعام كثيرة فى تلك الأيام ، وكان الحاج حسنى عبدالباقى – وهو من أعيان مصر ومن كبار الإخوان أيضًا – يقيم الولائم للجميع بلا تمييز بين الحين والآخر ، وكان من الذين يعرفون عبد الناصر معرفة وثيقة قبل الثورة ، وكان الأخير يقوم بتدريب الإخوان فى عزبته من أعمال مركز الصف ، وكان الحاج حسنى عبد الباقى كثيرا مايحل أزمة عبد الناصر المالية ويمنحه قروضا غير قابلة للسداد ، ثم تغيرت الأيام وجازاه « جزاء

سنمار » ، ولم يكن الرجل يتكلم فى هذه الأمور أبدا ، بل كنا نسمعها من أطراف أخرى عاشت تلك الحوادث وشهدت ذلك التاريخ .

وكان الحاج حسنى عمدة معتقل طرة السياسى بحق ، فهو الذى يجلس للقضاء بين الإخوان إن تنازعوا ، وحكمه لايرد ، وكان كثيرا مايتدخل لفض المشكلات التى كانت تنشأ بين الإدارة وبين المعتقلين ، وهى مشكلات إدارية حياتية لها علاقة بشئون المعيشة ، وهو الذى يتفاوض مع قائد المعتقل فى الحصول على البطاطين الصوفية عندما يأتى الشتاء ، وكان للرجل حضور عظيم بوجه عام ، فهو بجلبابه البلدى وطاقيته الصوف ، ونظرته المتأنية العميقة ، وصوته الهادىء يستطيع أن يفض أى خلاف قد ينشأ ، ويحل أية مشكلة فى إطار النظام العام والقانون .

كان الحديث عن الطعام فى معتقل طره السياسى .

وكان هذا النظام يتناقض مع ماألفناه فى معتقل أبى زعبل ، « فالتكافل » هناك ممنوع (رغم حدوثه) ، فهو يتم خفية ودون علم الإدارة ، أما هنا فى طرة فالأمر علنى وعلى رءوس الأشهاد ، وذهب بعض المدربين إلى الإدارة حسبما تعودوا فى أبى زغبل ، وقدموا تقريرا عما يجرى ويدور إبقاء على العلاقة الطيبة مع قائد المعتقل أو بدءا لها ، وهذا ماتعودوه فى أبى زعبل مع عبد العال سلومة ، وفوجئنا بمكبرات الصوت تزأر وارتفع النداء :

– سمع كل المعتقلين !

وأرهفنا السمع ، وكان بيانا قصيرا من ناصف مختار : يعلن فيه عن سخف الذين جاءوا يعرضون عليه خدماتهم ، ويؤكد المعانى التى قالها عندما استقبلنا عند حضورنا أول مرة ونصح الجميع

بالاهتمام بأشياء تفيد ، وأكد أن لاوقت لديه لهذه السخافات الممثلة فى تقارير بلهاء عن ماذا قال هذا أو ذاك ؟ وأعلن أنه سوف يعاقب كل من يفكر فى التطوع بتقديم أية معلومات عن الآخرين ، وأكد أنه ليس فى حاجة إلى هذه المعلومات .

وعم سلام وأمان فى كل مكان :

وبدأ مهرجان الحرية والاعتقال فى معتقل مزرعة طرة السياسى !

كان آمن مكان فى مصر هو معتقل طره فى تلك الأيام ، فأنت تناقش كافة القضايا الوطنية والقومية والإسلامية دون خوف أو وجل ، الكل يتحدث بما يشاء فى الوقت الذى يريد ، وكان المواطنون خارج المعتقل لايتمتعون بهذه الميزة ، كما كنا نعلم من أهلنا فى الزيارات ، فقد كان الإرهاب يسيطر على المواطنين ، والشائعات تملأ البلاد ، ومنها ما يقول:إن عبد الناصر شبه معتقل فى قصوره ، وأن هناك أربعة يحكمون مصر هم قادة الجيوش وعلى ماأذكر كانوا : محمد فوزى ، ومدكور أبو العز ، ومحمد فؤاد أبو ذكرى ، وربما عبد المنعم رياض ، وأن الإرهاب يسيطر على مصر ، وكافة أجهزة الأمن لها حق فى قمع المواطنين ، وكان يأتينا معتقلون ربما كل يوم تقريبا يؤكدون هذه الأفكار .

أما سكان معتقل طره فلم يكونوا يشعرون بهذا الإرهاب بل كانوا يتمتعون بالحرية كل الحرية فى جب السجن .

وكانت المباحث تدرى بما يدور فى المعتقل وتعرف الذين يناوئون ، وتعلم الذين يرفعون أصواتهم فى نقد الحكومة وسبها ، وكان هناك طبيب سمين اسمه « خليل » لايعرف عن الطب شيئا ، وكان هذا الرجل له حق تحويل المريض صاحب الحالة المتأخرة إلى مستشفى ليمان طرة وهى تقع على بعد كيلو مترين حيث

تجرى له فحوص أكثر دقة أو إلى مستشفى القصر العينى حيث العمليات الجراحية ، ويمكنه أن يصرف غذاء طبيا لمن يحتاج ، وكان هذا « الخليل » يمنع هذا الغذاء الطبى عن المشهورين بشتم الحكومة ونقدها .

هل كان خليل هو الذى يخبر المباحث ؟ أم كانت المباحث هى التى تأمر خليل ؟

الله وحده يعلم ، ولكنا كنا نلحظ هذا ، والغذاء الطبى عبارة عن قطعة كبيرة نسبيا من اللحم وكوبين من الحليب وثمرة من فاكهة الموسم كل يوم ، ويعرض عليه أصحاب الغذاء الطبى يوم العرض من صباح الجمعة ، فيوافق أو يلغى ، وكان الإلغاء هو غاية ماتمارسه المباحث من ضغط بمعرفة خليل ، ولم يكن الأمر يهم فى قليل أو كثير .

وملحوظة جديرة بالانتباه : أن هذا الضغط لم يكن يمارس إلا على المعتقلين من جماعة الإخوان ، أما غيرهم فلم يتعرضوا لأية ضغوط ، والكل عدو للحكومة كاره لها ، متحدث عن مثالبها ، ولم يكن أحد يعلم لها مزايا تذكر .

وكان أطباء الإخوان هم الذين يقومون على علاج المرضى من كافة الاتجاهات والنزعات ، وكان معنا اختصاصيون فى كافة الأمراض ، ثم وضعوا معهم طبيبا يهوديا هو الدكتور موسى جبلى الذى كان يثق فى أطباء الإخوان كثيرا وينصح اليهود بالكشف لديهم والتعامل معهم .

وكان أشهر أطباء الإخوان فى تلك الفترة الدكتور فاروق عباس زميل الزنزانة ٢١٠ فى السجن الحربى فى الأيام الأولى ، وكان رجلا مباركا ماعالج مريضا إلا وشفى بسرعة ، وكان الناس يقصدونه تيمنا وبركة وعلاجا ، وهناك أسماء أخرى الدكتور إبراهيم

عبيد ، وإبراهيم الكومى ، والدكتور محمد عامر إختصاصى الأنف والأذن والحنجرة ، وهناك صبيان كثيرون لاعلاقة لهم بالطب ولكنهم كانوا يقومون على مساعدة الأطباء فألموا بكثير من أعراض الأمراض وعلاجها وكيفية التعامل مع الجروح والحروق وحالات الإسعاف الأولية ، وكنت من هؤلاء .

ورأيت يوما الدكتور فاروق عباس يخفى مريضا فى غرفة من غرف المستشفى ، ويقوم على تطهير موسى حلاقة ، واستدعانى لمساعدته وأخبرنى مداعبا :

– لو أخبرت أحدا بما رأيت قتلتك .

– ماذا ستفعل ؟

– عملية فى عين فلان !

– ومالخوف من إفشاء السر ؟

– هذه عملية كحت للحبوب فى داخل الجفن . ولاتوجد أدوات أو استعدادات فنحن نجريها للحالات الصعبة فقط ، ولو فتحنا الباب على مصراعيه فسنجد كل هؤلاء فى حاجة إلى تلك الجراحة فيحسن عدم ذكر أى شىء عنها .

وأتم العملية فى هدوء وبرود أعصاب يحسد عليهما ، ونجحت العملية !

وكان خليل طبيب السجن الرسمى يقصد الدكتور فاروق إذا ألم به مرض أو أراد الفحص وكذلك الضباط وكافة رجال الإدارة وقائد المعتقل .

وكانت الأدوية الهامة غير موجودة والاستعدادات لعلاج الحالات الصعبة لم تكن متوفرة ، وكانت الأمور تسير بستر الله أولا وآخرا .

وكانت المستشفى مكانا للحالات المستعصية التى يصعب علاجها ، فهم يضعونهم هناك حيث ميزة النوم على الأسرة وقلة العدد نسبيا ، وكانت مكانا لبعض ذوى اليسار من غير الإخوان ممن يطلقون عليهم « النشاط المعادى » وهم مجهولو الهوية من المعتقلين والذين جاءوا بغير سبب واضح ، وكان هؤلاء يعيشون بالمستشفى لأنهم أصدقاء القائد ، وبعض الشخصيات الهامة من وزراء وقادة عسكريين وأعيان . و الحجز فى المستشفى يتم بقائمة انتظار طويلة ، ويتم شغل السرير عندما يموت صاحبه أو تتأخر حالته ، ويفضلون موته فى القصر العينى ، فيرحل بليل ويشغل السرير آخر فى الصباح من قائمة الانتظار الطويلة .

و « الملاحظة » : بها أنصاف المرضى من وجهة نظر العدد ، أما هم فمرضى جدا ، فليس هناك فى المرض تنصيف ، ويجرى على هؤلاء مايجرى على أهل المستشفى ، إلا أن الخدمة أقل على نحو ما ، وكان المعتقل بوجه عام مستشفى كبيراً فالكل يشكو من مرض ليس له شفاء ، ويبحث بلا أمل عن دواء .

وكان على مقربة منا على بعد كيلو مترين يوجد ليمان طرة حيث الإخوان الذين حكم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، أو الذين حكم عليهم بالإعدام ثم خفف إلى المؤبد ، وقد كتبت فى بطاقة كل واحد منهم عبارة غريبة :

« يحول إلى المعتقل بعد قضاء فترة العقوبة » .

والعبارة ممهورة بتوقيع عظيم من أنصاف العظماء فى عالم لم يسد فيه غير الأقزام والسفهاء .

وكان هؤلاء المسجونون من الإخوان فى حالة متدنية من سوء الأحوال المعيشية ، ولايصرف لهم من العلاج غير « بزموت طباشير » وهو علاج لكل داء ، وقام المعتقلون بتهريب الدواء لأهل

الليمان كل أسبوع ، وبُذل فى سبيل ذلك كل مرتخص وغال ، وكانت شبكة قوية قد بذلت الجهود الكبيرة من أجل تحقيق هذه الغاية وتوصيل الدواء حسبما تم طلبه بشكل دورى .

وكانت هذه من بعض مهام القسم الطبى فى المعتقل أن يوفر الدواء لأهل السجن ، وكم ضبطت البضاعة وهى فى طريقها ، ودفعت الإكراميات الضخمة من أجل وصولها فى سلام دون علم المباحث التى كانت تضيق الخناق على الجميع والمسجونين بوجه خاص .

كان اليهود يعيشون سادة فى معتقل طره السياسى ، فهم ينتمون إلى دولة منتصرة ، أعلامها مرفوعة ، وجهات دولية كثيرة تسأل عنهم وترسل مندوبيها للاطمئنان كل حين وآخر ، فهم يعيشون أيام المعتقل فى بحبوحة من العيش يرتدون الملابس الغالية الثمن ويخرجون للرياضة كل صباح ، ويتخذون مايشاءون من خدم من المسجونين الذين تكلمت عنهم ، وتعمل الإدارة لهم كل حساب ، وهى تطيع رغبتهم فى كثير من الأمر ، وكانوا ينقسمون إلى قسمين : الربانيين والقرائين ، وهم يعيشون معا فى عنبر واحد ورقمه واحد أيضا ، فيهم الشباب وفيهم الشيوخ ، وكانوا على صلاتهم يحافظون ، وتراهم متمسكين بدينهم ، يعملون حسب أوامره ونواهيه ، وكان زعيمهم « إيلى صفدية » وهو رجل عجيب ، يستطيع أن يفعل مايشاء وأن يحصل على مايريد ، وكنا نعجب من أحوالهم وكيف يعيشون!؟ وكيف يحصلون على تلك المكاسب فى بساطة ويسر ؟ ونحن لم نأكل الفول المدمس حتى سقط منا شهداء وقد أخبرنا بعضهم بتفسير هذه الألغاز ، فالمال فى الخارج كثير ونساؤهم لهن قدرة كبيرة على إقناع كبار المسئولين ، هكذا حكوا لنا ، وكنا نجادلهم فى كثير من الأحيان ، ونقول لهم :

– فى القرآن الكريم أنكم تفسدون فى الأرض مرتين ، وفيه أيضا أننا نقاتلكم ونهزمكم ونطردكم من أرض فلسطين ، ونحن على يقين من هذا .

ويقول قائلهم فى هدوء :

– ونحن على يقين مثلكم ، فقد حكت التوراة عن هذا ، ولكن ليس فى هذا الجيل ، أنتم أضعف من أن تفعلوا ، ونحن أقوى من أن نهزم أمامكم .

وتستفزنى هذه الصفاقة الهادئة فأقول :

– عجيب أمرك ، هل ترى هذا حقا ؟

ويرد فى هدوء :

– اسأل نفسك . ألا تقرأ صحف الصباح ؟ انظر فيها لتعرف الفرق بين العرب وإسرائيل ، ثم أنت تقول إن المسلمين هم الذين يهزمون اليهود ، أين هم هؤلاء المسلمون ؟ هم جميعا فى السجن ، والقائم على أمركم يتبرأ من الإسلام كل صباح ومساء ، ليس هو فقط ، بل كل الحكام العرب ، عداؤهم للإسلام والمسلمين أعظم من عدائهم لإسرائيل واليهود ، حتى يتوحد العرب يحتاجون إلى جيلين ، أما أن تخرجوا أنتم من السجن وتحكموا البلاد فهذا بعيد ، وسوف يحول بينكم وبين هذا إخوانكم من حكامكم ، أما إن حدث ذلك فتلك قصة أجيال تذهب وتجىء ونحن لن نشهد منها شيئا ، هذا أمر يكون بين أحفادنا وأحفادكم ، هى حرب لن يشهدها واحد فينا ، أما هذه الأيام فهى عصر اليهود ، لقد بذل الحكماء والكبراء فينا أعمارهم وأموالهم من أجل الوصول إلى هذه الأيام ، وقد شهدها جيلنا ، وأنتم تعيشون عهدنا الذهبى .

وكنا نتأمل صراحتهم فى دهشة ، ونرقب إيمانهم فى فضول وتعجب ، ونرى كثيرا مما يقولون ينطبق على واقعنا المر .

وكنت أسأل بعضهم :

– لو أفرجوا عنك إلى أى البلاد تذهب ؟

فيقول متعجبا من سؤالى :

– إلى إسرائيل بطبيعة الحال ، هذه هى أيام الرب ، وهو يتجلى من جبل صهيون .

– ولكنك تعودت الحياة فى مصر .

– سوف يمكننا الرب من مصر ، وطنى إسرائيل من الفرات إلى النيل .

وأفقت مذعورا على كلامه :

– أعوذ بالله – لن يكون هذا فى حياتنا أبدا .

وبهدوء الواثق :

– لو امتد بك العمر فسوف ترى هذه الحقيقة ، وبعدها الأيام دول وليفعل بنا الرب مايشاء ، قد نسينا وصايا الرب لموسى فشردنا فى الغربة قرونا ، ونحن الآن نعود إليها ، والرب جبار وقادر وهو رحيم وعادل أيضا .

وكانت تدور بيننا وبينهم مساجلات ومناقشات حول التوراة والقرآن ، واليهودية والإسلام ، وهل اعتور التوراة تحريف ؟ وهل القرآن من عند الله ؟ والأدلة على ذلك من التوراة ، وسيرة المصطفى ﷺ من الأسفار فى كتبهم ، وجئنا بتوراة ناقشناهم فيها ، وكانت حجتنا قوية ، وحجتهم داحضة ، وكانت المساجلات من نصوص التوراة ، وكانوا يضحكون عندما يعجزون عن الرد ويغيرون موضوع الحديث ، ولكن أسلم واحد منهم وحسن إسلامه ، كان اسمه (شارل مزراحى) وتسمى باسم محمد المهدى وكان يحضر صلاة الجماعة معنا ، وكان لايحب الحديث مع أحد خوفا من أن يفسر إسلامه تفسيرا سيئا ، وأن يظن إنه إنما فعل ذلك من أجل التجسس ، وقالها الإخوان علانية :

– احذروا الأخ محمد اليهودى .

وانبرى له الشيخ عارف :

– لماذا ؟

– لقد أسلم ليتجسس علينا ويعرف عوراتنا .

وانفجر الشيخ عارف ضاحكا :

– ياأستاذ عبد اللطيف نحن فى السجن منذ سنين ، ولم تعد لنا أسرار ، وعوراتنا كلها مكشوفة ، وليس عندنا مانخفيه .

وقال الأستاذ عبد اللطيف محتدا :

– أسرار الجماعة ياشيخ عارف ، هل أنت نائم ؟

– أسرار الجماعة ياسيادة اللواء طرف المباحث العامة ، والظن أنهم على صلة وثيقة بهم ، فإن كانوا يريدون شيئا فسوف يعرفونه ممن يعرفون ، والرجل صامت لايتكلم مع أحد ، ولايمثل علينا ، فهذا حاله لايتغير ، فكر فى شىء مفيد يامولانا . وكان الشيخ عارف على صواب ، فهذا الرجل لم يتحدث مع أحد حديثا يذكر حتى انقطع الزمن بيننا وبينه ، ولاأعرف الآن عنه شيئا .

وكانت العنابر تقفل فى الساعة السادسة قبل الغروب صيفا أو مع الغروب شتاء ، حتى يخرج جمع من اليهود – من رؤسائهم – إلى الإدارة ، ويعودون مع الفجر أو مع إشراقة الشمس ، كان هذا يتم كل يوم تقريبا ، ويقولون : إنهم يجتمعون مع ضباط كبار ، من هم ؟ لست أدرى ! فيم يتكلمون ؟ الله وحده يعلم !

حتى جاء يوم أخرجوهم على دفعات إلى فرنسا فإسرائيل ، ورفض أربعة هذا الأمر ، وظلوا حتى أفرج عنهم إلى بيوتهم فى مصر منهم الأخ محمد اليهودى ، ومنهم الدكتور موسى جبلى، ولاتزال عيادته ومنزله بروكسى بمصر الجديدة ، على مقربة من منزل الرئيس حسنى مبارك ، ولاأدرى هل هو من الأحياء أم من

الأموات . وكان اليهود أثناء فترة الاعتقال التى عشناها معهم يتوعدوننا ، ويصرحون أننا الخطر الحقيقى على دولة إسرائيل ، ويقولون عن حكوماتنا الرشيدة : إنهم سفهاء لايفهمون ، ويسيرون فى طريق مقيد ، أما الخطر الحقيقى فيكمن فى المد الدينى الذى يتوقعونه عقب هزيمة العرب المنكرة ، ويقولون : ليت قادتنا فى إسرائيل يفهمون هذه الحقيقة ، ويتركون للعرب بعضا من كرامتهم التى ضاعت قبل أن تنقلب المنضدة عليهم ، ويعودون فيقولون :

– هم بالتأكيد حكماء ويعرفون ماذا يفعلون ، والخطر لن يأتى قبل ثلاثة أجيال بعد أن تنتهوا أنتم بكثير .

عشنا أياما حافلة فى مهرجان الحرية والاعتقال بمعتقل طرة السياسى . وكانت تدور المناقشات والمساجلات حول كل شىء وفى كل موضوع ، وذهب الخوف من قلوب من كان فى قلبه خوف ، حتى إن البعض تنبأ أن هذا المهرجان لن يدوم ، وكيف يدوم ؟ وجاءت الشائعات أن عبد العال سلومة قادم إلى المعتقل .

ومرت الأيام رويدا والشائعة تتأكد حتى صارت حقيقة واقعة فى صباح أغبر من أيام الشتاء ، وكأن من عادته أن يأتى مع البرد والصقيع .

ورأيته يمر ومن حوله الضباط ، وعلى وجهه ابتسامة ظافرة كتلك التى جاء بها يوم رأيته أول مرة فى أبى زعبل ، وتذكرت اعتذاره لمن أساء إليه قبل حضورنا إلى طرة ، ورأيت منظره مختلفا ، فقد كان الرجل ممتلئا بالعدوانية والتشفى ، وقد بدا ذلك فى عينيه اللامعتين ، وفى ضغطه على شفته السفلى ، وكان يمر بين الناس ثم يقف عند واحد له معه تاريخ وحساب ينبغى أن يصفيه ، فينظر طويلا إليه ولا يقول شيئا ، ثم يتركه ويتحول إلى الآخر ثم عاد راضيا منصورا إلى مكتبه الذى كان به القديس ناصف مختار فى الليلة البارحة .

تغير قانون اللعبة منذ قدوم عبد العال بك .

وكان الشيوعيون والنشاط المعادى يعجبون من اهتمامنا به ويقولون :

– لم كل هذا الاهتمام لن يتعدى كونه حمارا من الحمر التى مرت علينا ؟

ونقول لهم :

– الأمر أعظم وأكبر من حمار يذهب وآخر يجىء ، وسوف ترون بأنفسكم . كان قد مرَّ شهر تقريبا منذ إطلاق شائعة أن عبد العال سلومة قادم حتى لحظة قدومه ، وفى هذا الشهر تغير كلام الناس وفكرها ، فقد ترك الجميع الحديث فى السياسة ، ولم يعد لأحد من حديث إلا عن عبد العال سلومة وماذا سيفعل ؟ ولماذا جاءوا به ؟ وماذا ينبغى علينا أن نفعل ؟ وكيف نلقاه ؟ وقال البعض :

– أنا سوف اضرب عن الطعام !

وقلب وجهه فينا ليرى أثر ذلك علينا ، فلم يجد غير السخرية الصامتة .

– يبدو أنكم لم تسمعونى فى وضوح .

ورد عليه آخر فى تثاقل :

– لسنا صما ، قد سمعناك فى وضوح .

– وماذا يجدى إضرابك عن الطعام ؟

– اتفلق !

وقال مشجعا :

– افهمونى ، لو أضربت مجموعة عن الطعام فسوف تستجيب الحكومة لطلباتنا .

وقال واحد :

– وأين هذه الحكومة ؟

– الحكومة يسرها ويرضيها أن نموت جميعا ، ولعلها تبيت تصلى وتدعو الله أن يخلصها منا .

– انس قصة الحكومة ، فهى لن تعرف بقصة إضرابك عن الطعام هذه .

هكذا يدور الحديث يوما بعد آخر ، واتفق الجميع أن ينتظروا حتى يجىء ، ثم يكون التصرف معه حسبما يقتضيه المقام .

وتبدل الأمن خوفا ، وصارت الراحة شرودا وقلقا ، وأضحت المناقشات طوال النهار ، وجزءا كبيرا من الليل ، حول الموضوع نفسه ، ولعل هذا كان بعض ماتريده الحكومة أن ينصرف تفكيرنا إلى شىء آخر غير الخيبة الكبيرة التى كانت تعيشها البلاد ، وتبدد الخوف والقلق يوم جاء عبد العال سلومة مقدما بعد أن كان رائدا ، وصار وجوده أمرا عاديا من اللحظة التى جاء فيها .

وتحفزت النفوس فى انتظار ماذا يفعل بنا أو معنا ، وماذا أعدت لنا المباحث العامة ؟ وقال البعض : هذه خطط الرائد فؤاد علام ، وقال البعض الآخر : الأمر أكبر من فؤاد علام لعلها أفكار الغمراوى أو زهدى ، أو ... وعددوا أسماء لامعة فى « لاظوغلى » ، ووصل الأمر إلى حسن طلعت وأنه صاحب فكرة إرسال عبد العال .

وبدأ عهد عبد العال سلومة الزاهر بمنعه دخول الطعام مع الزائرين للمعتقلين ، ويبدو أن الرجل قد هاله هذا القدر من الحرية والنعمة الذى يعيشه أهل طرة ولم يكن معتادا على هذا ، وتقبل الناس ذلك بثورة عارمة سرعان ماانطفأت فهم عقلاء جدا ، واقترن ظهور عبد العال بالحوادث الجسام منذ حادث استشهاد الإخوان فى الليمان عام ١٩٥٧ ، وعلموا أن حضوره للاستفزاز ، وربما هذه هى المقدمة وليس من المناسب الشهادة فى سبيل دجاجة محمرة أو حلة من الأرز وعلى العاقل أن يوفرها لشىء أكبر ، وكان هذا

مجرد جس نبض من عبد العال سلومة ، كان يريد أن يعرف ردود الأفعال ، وقد عرفها ، الصمت الشديد بعد الثورة العارمة ، ومن ثم لابأس من إجراء التدريبات من جديد ، وليعوض شهور الكسل التى قضاها حيث لايعلم أحد فتألقه وازدهاره مرتبط بالإخوان ، وربما يصل من خلال التضييق عليهم وإيذائهم إلى منصب كبير .

وبدأ (البروجرام) السمج المتكرر !

برقيات التأييد والامتناع عن التوقيع عليها .

عزل اثنين وتسعين معتقلا إلى عنبر « الخطرين » وهو عنبر اثنين ، غرفة واحد واثنين وثلاثة وأربعة ، والزنازين الداخلية .

وانتقلت مع سكان العنبر الجديد ، وكنت فى جوار الأستاذ **أحمد عادل كمال كالعادة فى غرفة رقم أربعة ، وكان معنا جمع طيب لم يكن معظمه خطرا من قبل ، ولكنه اختلاف الليل والنهار .**

وأشهر من كان معنا فى هذه الغرفة الأستاذ اسماعيل النشار والمهندس محمد الشافعى ابراهيم واللواء عبد اللطيف راشد والشيخ محمد عبد الفتاح عارف والمرحوم الدسوقى المراكبى والأستاذ محمد فهيم راشد وآخرون .

وفى الغرفة رقم ثلاثة كان الأستاذ محمد قطب ومصطفى كامل وعزمى بكر وعلى حمدى وفوزى نجم ولفيف من تلامذة الشهيد سيد قطب الذين أمضوا معه فى الماضى مدة العقوبة بالتمام والكمال دون تأييد أو إفراج ، وانتقل إلى هذه الغرفة شقيقى محمود حلمى .

وفى الغرفة رقم واحد كان المرحوم شكرى أحمد مصطفى ، وعبد الله بن أحمد السماوى والمرحوم الشيخ على اسماعيل ومجموعة من الشباب قدر لهم أن يكونوا زعماء بعد ذلك . وكان المرحوم أحمد نصير قد أقسم قسما مغلظا أن يضرب عبد العال سلومة بالحذاء عندما يراه ، ولذلك حرص البعض أن يبعدوه عن أماكن زيارته عندما جاء للمرة الأولى ، ومازال خطر القسم قائما .

وذهبنا إلى الرجل زرافات ووحدانا ننشده الله والإسلام وإخوانه ألا يفعل ويكفر عن قسمه ، وليدعه إلى الله سبحانه وتعالى ، فأمره معه أشد من ضرب الحذاء ، ونؤكد له أنه سيذهب فردا إليه فى يوم « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام » ، واستجاب الرجل مشكورا بعد ضغط والحاح وتوسل حرصا على الجو العام .

وكان عبد العال سلومة قد استدعانى والأخ عبد الحليم خفاجى وسألنى عن هذه الواقعة فقلت :

– فى المعتقلات والسجون تكثر الشائعات وتنقل على أنها أخبار .

– ألم يقسم أحمد نصير على ضربى بالحذاء عندما يرانى ؟

– أنا أقسم أننى لم أشهده أو أسمعه يفعل هذا .

– ألم تسمع بهذه القصة ؟

– ياسيادة القائد هذا لاينبغى،ولايجوز أن تحقق فى هذه الأشياء لأنها تهز هيبتك ، حتى لو صحت فى رأيك فمن الأوفق أن تتجاهلها كأنها لم تحدث .

وأيد الأخ عبد الحليم خفاجى كلامى واقترح أن يدعو أحمد نصير لشرب القهوة فى مكتبه ، وأن يتحمل بعضنا بعضا تلك الأيام التى كتب علينا أن نقضيها سويا . وعدنا إلى أحمد نصير وقال له عبد الحليم :

– قد تورطت واتفقت على شرب القهوة فى مكتب عبد العال .

وقال له أحمد نصير عليه رحمة الله :

– أنت حر فيما تفعل ياعبد الحليم .

وقال عبد الحليم بلهجته المحببة الودود :

– المشكلة أننى صاحب الاقتراح والمعنى به أنت لا أنا فلا تخذل أخاك،ومازلنا به حتى وافق عليه رحمة الله .

وجلسنا عنده وأغلظ له المرحوم أحمد نصير القول ، واشتد عليه وعلى الحكومة فى كلام كثير بليغ موجع ، وكنا نستمع صامتين ، وربما أيدناه فى أقل القليل إن لم تخنى الذاكرة ، وكان عبد العال سلومة ينظر إلينا فى دهشة عندما يسمع منا مايؤيده .

واستدعانا فى اليوم التالى وقال :

– هل أعجبكم ماقاله أحمد نصير بالأمس ؟ والله لقد سكت خوفا أن ينفذ قسمه ! وكتمنا ضحكاتنا أنا وعبد الحليم ، فقد كنا فى خوف بالأمس من السبب نفسه . وتكلم عبد الحليم كثيرا واشتركت معه ، وشرح لعبد العال «بك» كيف أن الظروف قد تغيرت ، وماكان بالأمس مقبولا لم يعد اليوم كذلك ، فقد اختلفت الدولة واختلف موقعها ، واختلف الناس كذلك ، وليس من الحكمة الدعوة إلى تأييد حكومة فى ظروف مثل التى تمر بها حكومتنا . فهو إساءة إليها وامتهان لعقول الناس ، فالحكومة مجروحة مهزومة .

وانتفض عبد العال بك :

– أتسمى النكسه هزيمة ؟ ألم تقرأ الصحف ؟

قلنا :

– الكلام فى الصحف شىء والواقع شىء آخر ، ونحن هنا نتكلم بالحقيقة ولا نريد أن تشق على نفسك وعلى الناس ، فدعهم وماهم عليه ، وحتى تستريح فلا تصدق أن هناك إنسانا واحدا يحب هذه الحكومة ، ولو وجد هذا الشخص لكان مختلا فى عقله ، فليس من العقل أن يحب أحد جلاده ، ودعنا نواجه الحقائق فى وضوح وصراحة ، أنت تطلب أشياء تتناقض مع المنطق السهل البسيط ، وكل شىء سوف ينتهى يوما ، طال الزمن أو قصر ، فلماذا لانعمل حسابا للذكرى الطيبة ؟

واستمع الرجل طويلا إلينا ، وكانت الأمور واضحة ، الموقف مختلف والناس على استعداد للتحدى وهم متحفزون مستفزون ، ومستقبل الحكومة بيد الله سبحانه وتعالى ، وارتفع الهمس فى الشارع المصرى حتى صار صخبا ، وخرجت المظاهرات من العمال ومن الطلبة ، وهان أمر الحكومة على الشعب ، ولم تعد تخيف أحدا .

كانت التدريبات التى يجريها عبد العال سلومة على المعتقلين تستدعى مناخا ذا طبيعة خاصة لنجاحها ، ولم يكن هذا المناخ متوفرا فى معتقل طره السياسى .

وحتى يحدث الأثر المطلوب يجب أن يكون المكان منغلقا تماما فلا أخبار ولازيارات ولاكتب . ولاراديو ولا تليفزيون ، وهذا كان الأسلوب فى أبى زعبل ولكن الحال فى معتقل طره السياسى كان مختلفا ، وحاول عبد العال سلومة أن يقنع الإدارة العليا بأن تلغى هذه الامتيازات بلا فائدة ، فالمكان به اليهود ، وهم يأخذون حقوقهم رغم أنف الحكومة اعتمادا على نفوذهم فى الداخل والخارج ، وكانت الإدارة العليا منشغله بأمور كثيرة أهم من الاستجابة لطلبات عبد العال ، ويكفى أن يقوم بواجبه فى مضايقتهم ، وتظل أفكاره سيفا مصلتا عليهم ، ولعل الأمور تتغير ، ومن ثم يستطيعون الاستجابة لمطالبه ، ذلك بعد أن ينتقل اليهود والنصارى والنشاط المعادى والشيوعيون إلى مكان آخر ويفرغوا بعدها للاخوان عدوهم اللدود ، وحتى يأتى هذا الحين ليفعل عبد العال سلومة بهم مايشاء .

كان يطلب أخبارا عن المعتقلين فلا يستجيب أحد ولايحصل على شىء إلا أقل القليل مما لايضر ولاينفع ، وكنا نقول للناس : لاتهتموا بهذه الأشياء ، فقوم قد مضى على اعتقالهم سنوات لم يعد عندهم ماينبغى أن يعرفوا من أنباء وأخبار ، وكان كل تركيزه على

المعتقلين من الإخوان ، أما غيرهم فهم ضيوف لايطلب منهم شيئا ، وليقولوا مايشاءون ، لاحساب عليهم ولامساءلة ، ومن الطبيعى أنهم ضد الحكومة ، ومن الطبيعى أنهم يشتمونها صباحا ومساء ، وكان يتقبل منهم هذا أما الإخوان فلا . وكان المعتقلون من غير الإخوان يتعجبون لعدم اهتمام الحكومة بهم ، ممثلة فى شخص عبد العال "بك"، ويفسر « النشاط المعادى » هذه الظاهرة بقوة الإخوان وبالمضمون الدينى والسياسى الذى تحمله الجماعة ، أما الشيوعيون فيفسرونه بضعف الإخوان وتهافتهم سياسيا ، وينصحون بتحدى الحكومة وعمل إجراءات لاستفزازها ، وكانوا يفعلون هذا ، وينتهزون الفرص والظروف لإثارة الشغب وإعلان تحديهم للسلطة وأملهم أن يعمل لهم أى اعتبار بلا فائدة ، وهو أمر كان يغيظهم كثيرا ، وأذن الإدارة « من طين والأخرى من عجين » كما يقول المثل ، فيمتنعون مثلا عن استقبال زوارهم فلا تهتم الإدارة ولاتسألهم لماذا فعلتم ؟ ويمتنعون أحيانا عن استلام الطعام فلا يأتى من يحاول اقناعهم باستلامه ، يجلسون ويسبون الحكومة سبا علنيا على رءوس الأشهاد ، ويصل الأمر إلى قائد المعتقل فيضحك وكأنه لم يسمع شيئا ، هل كانت الأوامر تقضى بهذا ، أم أنها قوة لاتخيفهم ؟ ربما كان الإثنان معا .

والأمر يختلف مع الإخوان ، لو حدثت مشادة بين واحد من الإخوان وأحد الحراس أثناء الزيارة فإن الدنيا تقوم وتقعد ، وتغلق الأبواب ، وتعلن حالة الطوارىء ، ويستدعى القائد الناس ، ويسأل عن دوافع هذا الحادث وأبعاده وصداه ، بين غيظ الشيوعيين . وضحك « النشاط المعادى » .

كانت الكتب تدخل للشيوعيين ، ويمنع منها الإخوان المسلمون ، عيانا بيانا فى رابعة النهار . وذكر واحد حكاية الشيوعى الكبير الذى أفرجوا عنه قبل خمسة يونيو بيومين ، وكيف ذهب إليه بعض الإخوان يسلمون عليه قبل خروجه من معتقل طره :

– كنا نود أن نخرج معك لنحارب اليهود فى معركة فلسطين القادمة .

وقال الشيوعى :

– لست خارجا للحرب فى فلسطين ، هذه ليست قضيتى ، بل هى قضيتكم ، ولو نظرتم لرأيتم أنها قضية خاسرة ، ليتكم تلحقون بالزمن وتنسون قصه الجهاد فى سبيل الله لأنها لاتفيد .

ومصمص الإخوان شفاههم استنكارا ، وخرج الشاعر الشيوعى الكبير (ع . أ) ليقابل وزير الداخلية شعراوى جمعة ، فيهنئه على الإفراج ويقول له :

– مصر كلها تحت أمرك .

تعرفنا على الشيوعيين المقيمين فى عنبر واحد عندما نقلونا إلى عنبر اثنين الملاصق ، فقد كانت دورة المياه مشتركة قسمناها قسمين ، واحد لهم وآخر لنا ، وكان يشترك فى دورة مياههم اليهود والنصارى والنشاط المعادى ، ثم جاء الصحفى على محمود رئيس مكتب « الاسوشيتد برس » فى القاهرة ، والمفروض أنه تابع للنشاط المعادى بحكم تصنيف المباحث العامة ، ولكنه رجا الناس أن يسمحوا له باستعمال دورة مياه الإخوان وقال قولته المشهورة :

– الفرق بين الإخوان والشيوعيين كالفرق بين دورتى المياه ، واحدة نظيفة جدا ، والأخرى على العكس من ذلك .

وكنا نذهب إلى زيارتهم ، وكانوا يأتون لزيارتنا ، ونتناقش أحيانا كثيرة فى القضايا القومية والوطنية والدينية ، وكانوا يتكلمون فى وضوح وصراحة فتجدهم مثلا يقولون :

– « الدين أفيون الشعوب » .

فنقول لهم :

– هذه قولة قد قيلت عن أوروبا وأثر الكنيسة فى تاريخها ، أما الإسلام فهو شىء يختلف واقرءوا التاريخ .

ويقولون :

–قضيتنا هى حكم الكادحين (البروليتاريا) .

ونقول لهم :

– قضيتنا هى العدل والحق والحكم بالقرآن .

فيقولون :

– قد ذهب أوان القرآن ، إن أنتم إلا فى ضلال مبين .

ويستمر الحوار على هذا النحو شهورا وسنين بلا فائدة . وكانوا يقولون أشياء غريبة ويعلنون مبادىء عجيبة ، وهم فى واد والأمة فى واد آخر ، فكل القضايا الهامة التى تشغل الناس لايفكرون فيها ولايلتفتون إليها ، ورغم الاختلافات البينة فقد كنا نتعامل معهم فى ود وأدب ، رغم أنهم لم يكونوا هكذا معنا :

نحن نتابع الموقف مع إسرائيل والحرب بيننا وبينهم وأخبار حرب الاستنزاف رغم اتفاق الجميع على كراهية الحكومة والزعيم بينما هم يتابعون فى اهتمام أخبار حرب فيتنام !

ونقول لهم :

– ينبغى أن يكون اهتمامكم بفلسطين أكبر من اهتمامكم بفيتنام .

فيقولون :

– فلسطين نزاع حول أرض أما فى فيتنام فهى حرب المبادىء .

وأهتف لهم فى عجب :

– سبحان الله ! أنتم ترون الدنيا بالمقلوب !

ويرد واردهم فى سماجة :

– هى وجهة نظر على أى حال يازميل .

وكانوا لايغسلون وجوههم وأيديهم وملابسهم ، ولايستحمون إلا نادرا ، وكنت إذا دخلت عنبرهم شممت رائحة (النوشادر)

والعفن كأنك قد دخلت حظيرة للخيل ، وكنا نسد أنوفنا ونتنفس من أفواهنا حتى نتحمل الرائحة ، أو نطلب إليهم أن نخرج فنجلس فى الطرقات ، فنتكلم ونعطيها حقها .

وكانوا يحبون استخدام الكلمات الفخيمة الضخمة ، وينطقون الكلمات الأوربية فى عظمة ، وتجد نصف كلامهم مصطلحات اقتصادية واجتماعية وسياسية ، وعندما يضيق ذرعنا بهم نقول :

– ياجماعة تكلموا معنا بالعربية فلعلكم تفهمون ماتقولون !

وكانوا يتجرءون على الله سبحانه وتعالى وعلى الإسلام ، ويقولون قولا عظيما . وكنا نتحملهم ونجادلهم بالتى هى أحسن .

وكانوا يذكروننا بالمشركين والكافرين الذين خاطبهم رسول الله ﷺ فعندما نقول لهم إن القرآن يقول كذا ، نجدهم يقولون :

– « إن هذا إلا إفك افتراه » .

هكذا كان الأمر بيننا وبينهم ، ونقول لهم : أنتم تنتمون إلى أمة أخرى وتتبنون قضايا لاتهم بلادنا ، وتعيشون فى غير عالمكم ، فيقولون لنا :

– هذا صحيح .

وكان يغيظهم عدم اهتمام قائد المعتقل بهم ، وعدم اكتراثه بما يقولون . لم يكن قائد المعتقل يرى فى طره غير الإخوان المسلمين ، وربما كان يراهم فى أحلامه بالليل ، كان اهتمامه بهم كبيرا عظيما ، كأنه فى معركة مع ذاته ويريد أن يثبت لنفسه شيئا يؤرقه فى صحوه ونومه ولايستطيع الفكاك منه .

وكان الضباط مثل قائدهم يكون اهتمامهم وفقا لاهتمامات قائدهم ، لايعرفون أحدا من الشيوعيين ، ويحفظون كل واحد من الإخوان ، ويحاولون التقرب منهم ، والمرور فى عنابرهم والاحتكاك بهم سلبا أو ايجابا .

ولم نكن نعرف قضايا مميزة للشيوعيين ، ولانعرف أسبابا واضحة للقبض عليهم ، مهما كان السبب ضعيفا ومتهافتا ، ولاأدرى لماذا أتذكر تلك الكلمة التى قالها واحد من الإخوان وهو يودع واحدا من الشيوعيين الذين خرجوا قبل خمسة يونيو بأيام :

– نلتقى فى فلسطين .

– سوف ندع لكم الجهاد فى فلسطين ، هذا أمر لايعنينا .

كلام شبيه بقول آخر قد قلته قبل ذلك فى صفحات سبقت . ولله فى خلقه شئون !

كان النشاط المعادى مزيجا من شخصيات مختلفة وأنماط متعددة ولا يربط بينها رابط ماغير رابط الزمان والمكان ليس أكثر .

كان هناك عبد العزيز خميس الصحفى الذى اتهم فى الأربعينيات مع أنور السادات فى قضية اغتيال أمين عثمان باشا ، ثم فى عام ١٩٦٥ فى قضية اغتيال عبد الناصر والمتهم الرئيسى حسين توفيق ، وهو يرتدى الروب (الكاروهات) من أيام الحربى فى الزنزانة التى تقع فى الركن عند البئر ، ثم فى الانفرادى الموجود فى عنبر واحد أمام غرف الشيوعيين ، والرجل فاضل وطيب ، ولاعلم له بالسياسة كثيرا ، وهو متشائم رغم مايبدو عليه من بشاشة وضحكات عالية ودود ، وقد برىء من قضية الاغتيال ، ثم جاء إلى المعتقل ليقضى بقية أيامه ، أو أيام عبد الناصر فى ضيافة عبد العال بك الذى لم يكن يعرفه ، فهو كما قلت لايهتم بغير الإخوان المسلمين .

وكان هناك عنبر الشعراء وبه جمع غفير منهم ، أذكر الشاعر محمد بدر الدين وكان ينتمى إلى مدرسة الإخوان المسلمين فى الأصل ، ولكنه أمسك به بهذه التهمة ، وقد اعتدى عليه أحد الشيوعيين بالضرب بمقص فى بطنه ، وظل يعالج من هذا الجرح القاتل لمدة أسابيع ، وحفظ التحقيق فالمسألة فى نظر الإدارة مجرد

مشاجرة عوقب عليها الشيوعى بالحبس الإنفرادى أسابيع ، وهذا الحبس الانفرادى نعمة كبيرة فى تلك الأيام ، وكان الأستاذ محمد بدر الدين سيداً صاحب كلمة مسموعة فى عنبر الشعراء ، فهو عاقل كريم ، بليغ فصيح ، له علم بالفقه وأصوله ، ويقول الشعر فى المناسبات فيجلجل صوته كريما قويا شجيا ، يملأ القلوب نشوة وراحة ، من جمال ما ينظم ومن صدق مايقول .

وكان هناك الشاعر محمود الماحى عليه رحمة الله الذى ألف قصائد فى سب النظام ووصف هزيمة يونيو ، وكان يقوم على أداء قصائده مغناة مع بعض أهل الشهرة من الفنانين ، وكان يقول لاأظن أن هذا هو سبب اعتقالى وإلا أحضروا من كان يغنى معى .

وكان هناك الأستاذ على شلش ، وهو من النقاد المهتمين بالأدب الأفريقى فى ذلك الوقت ، وكانت له بعض الكتابات فى كشكول أحمر عن ترجمات لقصائد أفريقية لاأذكر منها الآن شيئا ، وكان مهذبا ودودا لطيفا .

والأستاذ عبد اللطيف أبو السمح الشاعر الشارد ، وكانوا قد وجدوا فى جيبه ورقة بها بعض الأرقام عبارة عن التالى :

« ١٨ خطوة ثم تتجه يسارا ٥٤ خطوة ، وتكرر العملية فى عكس الاتجاه فتصل إلى ماتريد بالضبط » .

وعذب الرجل تعذيبا شديدا ليفسر معنى كلامه ، وكل مايقوله مرفوض ، فتفسير هذا هو خطوات يسلى بها الرجل نفسه فوق كوبرى الجامعة ، يحسب طوله وعرضه وأبعاد أخرى فيه ، ولم يرحموه من العذاب حتى ذهب أحد الخبراء من المخبرين وقاس المسافات كما حكاها الأستاذ عبد اللطيف أبو السمح ، وضربوه على شىء آخر بعدها . وكان هناك الأستاذ كامل أمين الشاعر

صاحب المزاج الحاد ، والشعر الأبيض الفضى والبايب الذى لايفارقه ، وهو من ألف ملحمة (السموات السبع) ، وكان رساما يجيد الرسم ، ورسم لوحة رائعة عن معركة القادسية كما تصورها بخياله .

وكان معهم الشاعر وجدى شبانة ، وكان فنانا صاحب خط جميل ندر أن يوجد مثله . أكثر من ثلاثين شاعرا منهم من يعرف الآخر ، ومنهم من يلتقى بزملائه للمرة الأولى ، ويجمع بينهم سبب غريب عجيب ، مؤداه أنهم حضروا ندوة شعرية فى منزل شاعر سعودى اسمه « على غسال » ، وقال كل شاعر فى هذه الندوة شعرا مما يمكن أن يقال فى الحب والغزل والمديح والهجاء ، وكافة أغراض الشعر قديمه وحديثه ، ولم يتعرضوا للسياسة فى قليل أو كثير حسبما رووا ، وأودعوا جميعا معتقل القلعة السياسى حيث ضربوا ضربا مبرحا بالنعال وبغير النعال ، وهم يحاولون تأليف تنظيم يجمعهم ، واستحال ذلك رغم كافة المحاولات ، ولما تعذر جاءوا بهم إلى معتقل طره السياسى ، وصار شغلهم الشاغل أن يتبينوا سبب اعتقالهم دون فائدة .

واستقطب الإخوان معظم هؤلاء الشعراء إلى صفوفهم ، وكانت النتيجة أن غرقوا جميعا فى السياسة ، وصارت لهم مواقف إيجابية من قضايا الوطن والدين ، وصاروا يؤلفون الشعر فى المشاكل العامة بعد أن تحرروا جميعا من الخوف داخل المعتقل .

كان معنا فى المعتقل الصحفى على محمود ، والوزير المفوض أمين سوكه ، وكان هناك أيضا سعيد حبيب أحد وكلاء وزارة الداخلية فى العهد الماضى ، والمحامى محمد شوكت التونى ، والمستشار محمود عبد اللطيف ، ونخبة كبيرة من رجال المجتمع المصرى فى كافة التخصصات ، فتجد قوما من وزارة الخارجية والثقافة والعدل وقضاة ومستشارين ومحامين ومدرسين وأطباء ومن

كل مهنة وعلى كل لون ، وكافة الأديان كانت ممثلة فى معتقل طره السياسى ، واليهود والفلسطينيون فى عنبرين متجاورين !

وكان هناك عبد الفتاح حسن باشا الوزير الوفدى السابق عليه رحمة الله وكان مهذبا ودودا متحفظا فى حديثه ، ولكنه سرعان ماتأقلم وصار يتكلم كما يتكلم بقية الخلق فى كافة الموضوعات ، ويدلى برأيه فى صراحة ودون خوف .

سألته مرة :

– ياباشا .. لقد كنت وزيرا قبل الثورة .

– هذا صحيح .

– ألم يكن هناك فساد فى الحكم فى تلك الأيام ؟

وصمت الرجل برهة ثم أجابنى :

– بلى قد كان هناك فساد قبل الثورة ، وهذا أمر طبيعى ، حيث يكون الحكم يكون هناك ضرب من الفساد ، ولكن السؤال كم يكون حجم هذا الفساد الذى كان ؟ يابنى نحن فى حاجة إلى خمسين أو مائة عام من الإصلاح لنصل إلى درجة الفساد التى كنا عليها قبل الثورة ، هناك فرق بين حكم يشوبه فساد ، وحكم سمته الفساد . لقد قضى عبد الناصر على أمل الاصلاح لأجيال قادمة ، لقد أفسد أخلاق الناس وقتل فيهم روح الشهامة والمروءة والمثل الأعلى .

وتذكرت وأنا أستمع إلى كلام عبد الفتاح حسن باشا عند ماكنت فى معتقل القصر العينى أجرى عملية الزائدة ، كيف أرسل الطبيب الشهم إلى أسرتى فجاءت أمى عليها رحمة الله لزيارتى ، وكان هذا ممنوعا ، وكنت أثناء العملية الجراحية أعيش مع باقى المرضى فى العنابر العامة ، ونظرا لكونى معتقلا فقد وضعونى فى غرفة بها سريرين ، أنا على واحد ، والآخر لعبد المسيح أفندى وهو موظف بالشركة الشرقية للدخان فرع شبين الكوم ، وكان هو الآخر

يجرى جراحة لأذكر طبيعتها الآن ، وأقاموا على سريرى جنديين للحراسة ، وجاءت الوالدة عليها رحمة الله وأفهمناها أن تتظاهر بأنها قادمة لزيارة عبد المسيح أفندى هذا إذا فاجأنا ضابط المعتقل ، والذى كان لسخرية القدر أحد الزملاء القدامى فى المدرسة ، وكان يعرفنى جيدا بطبيعة الحال ، وكنت عندما رأيته لأول مرة قد شعرت بفرحة غامرة سرعان ماتبددت :

– هل أنت فلان ؟

فاجابنى بغلظة شديدة :

– نعم هو .

وتعجبت وشككت فى نفسى !

– ألم تكن فى مدرسة شبين القناطر الثانوية ؟

وانفجر غاضبا :

– نعم كنت كذلك ، ولكن الزم جانب الحذر وتكلم مع السادة الضباط بما يليق !

وقلت له بصوت مسموع :

– وهل ترانى أخطأت ؟ سبحان من يغير ولايتغير !

وصارت وطأة هذا الزميل القديم شديدة ، فهو يتسلم نوبته لمدة اثنتى عشرة ساعة ، كان يفتش علىَّ فيها أكثر من خمس مرات ، ويضيق الخناق كأن بينى وبينه ثأرا ، رغم العلاقة الطيبة التى كانت بيننا أيام الدراسة .

وتكررت زيارات أمى عليها رحمة الله ، وكنا نختار الوقت الذى لايتواجد فيه ذلك الزميل النذل ، ورأيته فجأة فى غير نوبته يدخل علىَّ الغرفة ، وماهى إلا دقائق وتأتى الوالدة ، ترى ماذا يحدث من هذا الزميل النذل ، وفوجئت به وهو ينظر إلىَّ منتصرا متشفيا ، وكان لديه (إخبارية) عن وصول الأم بعد قليل ، والله يعلم ماذا يمكن أن يحدث ، فهى حالة فريدة لم يسبق لها مثل من قبل .

واقترب منى متشفيا :

– سمعت أن لديك زواراً .

ووجدتنى أجيبه :

– هذا صحيح .

وصار وجهه خنزيريا وهو يقول :

– من أرسلته فى طلب أهلك ؟ وكيف تم الاتصال ؟ لن تستطيع تنبيه أحد ، لقد صنعت لك كمينا ، وأنت لاتعرف عقوبتك وعقوبة من سيأتى ، هيا أجب على سؤالى ، من أرسلت فى طلب أهلك ؟

وصرت أقلب النظر بينه وبين عبد المسيح أفندى الذى كان يتمنى أن تنشق الأرض وتبلعه من الخوف ، وقلت له فى هدوء :

– لقد أرسلت لهم زميلا قديما فى المدرسة صار الآن ضابطا واسمه محمد عبد الخالق ... (وذكرت بقية اسمه) وهو يعرفنى ويعرف بيتى ، وهذا ماسوف أقوله فى التحقيق ، وقد أفهمت أمى هذا عند سؤالها .

واصفر وجهه من الخوف فقد كنت أعنيه :

– سوف يعرفون الحقيقة .

– بالتأكيد سوف يعرفونها ، ولكن بعد نقلك إلى مديرية أمن أسوان . وكاد قلب عبد المسيح أفندى يتوقف من الخوف ، وهو يتوسل للضابط النذل :

– يابخت من قدر وعفى ياسعادة البيه ، أنت الكبير ، ياشيخ فى عرضك سيبه . ووقف الضابط قليلا متأملا مشدوها ، ثم غادر المكان ، ولم يعد يضايقنى بعد ذلك ، ثم نقل من المعتقل بعد أيام أخرى ، ولم أره بعد ذلك أبدا ، لقد صدق عبد الفتاح باشا حسن ، لقد أفسدوا أخلاق الناس ، وقتلوا فيها الشعور بالعزة والكرامة والوفاء حتى لزملاء الصبا والدراسة !

وحكت لى أمى (عليها رحمة الله) كيف تنكر لها الأهل والأصدقاء ، ولم تعد تدعى إلى عرس ، وإن ذهبت تؤدى واجباً فى عزاء فر الناس منها وتأففوا من لقائها حتى أصحاب الميت الذين ذهبت تعزيهم ، وقرت فى دارها لاتزور أحدا ، ولايزورها أحد ، وكيف أطلقوا الشائعات عن صناديق القنابل التى كنت أخفيها وشقيقى محمود حلمى ، وكيف أنهم أمسكوا بنا ونحن نحاول نسف القناطر الخيرية ، وهكذا : حكومة من السفاحين لابد وأن يتولد منها شعب من الخائفين ، فقد كان الشعار أيامها من يفتح فمه يضرب بالحذاء ويلق فى السجن ، ولست أدرى أيهما قبل الأخرى .

وتوفيت (عليها رحمة الله) ونحن بمعتقل طره السياسى بعد أن زارتنا زيارتها الأخيرة وقالت لنا :

– هذه هى زيارتى الأخيرة ولاأظن أنى أراكما بعد الآن !

وكان منزلنا يقع على مقربة من محطة القطار ، وقالوا لنا بعد ذلك انها كانت تهرع إلى النافذة كلما سمعت صفير القاطرة لعلها ترى ولديها ، وكانت تدخر مبلغا صغيرا لتعد لنا احتفالا عند الإفراج عنا ، ولم تفرط فى هذا المبلغ حتى توفاها الله ، ولم يقدر لنا أن نراها بعد تلك الزيارة .

وعندما جاء النعى بها ، فرشت البطاطين فى الطرقات ، ووقفنا نتقبل العزاء مع أهل عنبرنا ، حيث هرعت إلينا جميع العنابر والغرف ، وجلس من يقرأ القرآن كأى مأتم يكون خارج الأسوار ، وكانت هذه من العادات فى السنين الأخيرة فى الاعتقال ، إن أصيب أحد فى أهله فنحن نقيم له مأتما ونتقبل العزاء ونقدمه ، وكانت هذه من مآثر **ناصف مختار** قائد معتقل طره الذى استبعدوه وجاءوا بعبد العال بدلا منه .

مالبثنا حتى جاءوا لنا بزعماء الطلبة الذين قادوا المظاهرات ضد عبد الناصر يطالبون ببحث مسئوليته عن الهزيمة العسكرية ، وكانوا جميعا من منظمات الشباب التى أقامتها الحكومة ، ومن أهل الثقة ، ومن الذين كتبوا التقارير فأسرفوا فيها على أنفسهم وعلى زملائهم ، ولم يكونوا يصدقون بوجود المعتقلات ، ولم يعقلوا قصص التعذيب الوحشى التى سمعوها من هنا وهناك ، وكانوا يسألوننا عن سائر الترهات التى سمعوها عن ترسانة السلاح التى ضبطوها لدى الإخوان ، وسألونا عن الاغتيالات ، وقتل شادية ونجاة الصغيرة ، وسائر ماأعلنوه على الناس من بلاهات ، وعرفوا الحقائق بحكم معيشتهم معنا ، وأحصوا عدد المحكوم عليهم ، فهم لايتجاوزون بضع عشرات ، قد سجنوا بتلفيق ظاهر وقادر ، وأحصوا عدد المعتقلين فوجدوهم الافا لاذنب لهم إلا كلمة « لا إله إلا الله » وقال قائلهم : « تالله لقد كنا فى ضلال مبين » .

وكانوا شباباً فى العشرين من كل جامعات مصر ، قد ملئوا رءوسهم بالأكاذيب وأفاقوا على الحقائق فى المعتقل ، وكانوا يطالبون الإخوان بالتصدى للمشكلات الجسام التى تمر بالبلاد ، وينظر الإخوان إليهم فى عجب ولايتكلمون ، فتاريخهم كله قصد لكافة مايصلح البلاد والعباد ، وأكثر من ثلاثين عاما وهم يضربون ضربا مبرحا دون هوادة .

كان هذا الشباب يعشق عبد الناصر ويرى فيه منقذ مصر ، ثم غيروا رأيهم بعد ذلك تماما ، فقد أحاطوا بمالم يحط به غيرهم ، وجاءوا من المعتقل بنبأ يقين ، وكان حماسهم عظيما فهم لم يضربوا ولم يعذبوا ، ومازالت لديهم أفكار الإصلاح والتغيير .

وكان يقول قائلهم :

– لابد من حكومة تشكل من الإخوان المسلمين لانقاذ البلاد وإصلاح الأوضاع المتردية . وكنا نستمع إليهم ويقول لهم قائل الإخوان :

– أنتم تتحدثون إلى قوم خارجين على القانون من وجهة نظر من صنع القوانين . وكانت لهم وجهات نظر عجيبة وغريبة ممتلئة بالفتوة والشباب والحماسة والرغبة العارمة لإحداث شيء ، التحرك إلى الخارج ، أن تخرج جماعة الإخوان من خارج المعتقل فى مظاهرة وطنية ضخمة تتسلم الحكم من أيدى الفجرة والكفرة (هكذا كان تعبيرهم بالضبط) ولكن كيف يمكن الخروج ؟ لم يخبرونا بهذا !

وكانوا قد دربوا وأعدوا فى معسكر حلوان الاشتراكى إعدادا وتدريبا اشتراكيا يتناقض مع الدين ، ويتأسس على السخرية من العبادات والتهاون بكل القيم الدينية ، وتغير حالهم فى المعتقل ، صاروا يقيمون الصلاة معنا ، ويقرءون القرآن ، وبدءوا يؤكدون أن حل كل مشاكل مصر يكمن فى اعتناق المصريين للإسلام من جديد ، فالناس ليسوا مسلمين على الوجه الصحيح ، وهم بعيدون عن الإسلام فى كل تفصيل وإجمال من حياتهم ، ونظام الحكم جاهلى بالمعنى الدقيق الصحيح ، الأمة كلها بعيدة عن الإسلام ، ونجاتهم فى اتباعه .

وقال قائل الإخوان فى هدوء :

– لم يقل سيد قطب الشهيد أكثر من هذا .

واستدعى عبد العال سلومة واحد من هؤلاء الطلبة الذين ربوا فى المنظمات الشبابية الحكومية ، وكان عضوا لاتحاد طلاب الجمهورية عن كلية الهندسة جامعة الإسكندرية ، وكان اسمه نادر إن لم تخنى الذاكرة ، ولما احتدم النقاش بينهما أرسل فى استدعاء زميل له إن لم تخنى الذاكرة أيضا فقد كان اسمه أحمد عبد العزيز وجرى الحوار كئيبا ضجرا مملا ، فيبدأ عبد العال :

– أنتم رجالى ومن يمكن أن اعتمد عليهم فى السيطرة على هؤلاء المجرمين .

– نحن لسنا رجالك ، ولكنا شباب مصر ، وهؤلاء الذين تتكلم عنهم ليسوا بمجرمين .

– لماذا تشغل نفسك بأمور لافائدة منها ؟ الحكومة لاتدرى عنك شيئا ، وقد نسيت كل من فى المعتقل ، ولايهمها أمرهم .

– أنا أريد أن أعرف فيم يفكر هؤلاء الناس وماذا ينتوون ، وأنتم أصحاب خبرة فى كتابة التقارير وقد دربتم على قراءة الأفكار ، ويجب أن تساعدونا .

– كنا نكتب التقارير على ظن منا أن هناك قيادة حكيمة تصلح المعوج ، وتقوم الأمور ، ثم فهمنا أنهم ينتقمون من أعدائهم ، ويتخذون التقارير وسيلة للبطش بمعارضيهم ، ولم نكن نعرف بما يدور فى المعتقلات وراء الأسوار .

– أصبحتم إذن من الإخوان المسلمين !

– ياليتهم يقبلوننا فى صفوفهم .

وانفجر عبد العال ساومة غاضبا كالبركان :

– يقبلوكم فى صفوفهم ؟ سوف ترون ماذا أصنع ! لم تعد للإخوان صفوف . وأجابه أحمد عبد العزيز ساخرا :

– مثل جيشنا الذى انهزم ومزقته السرقة وأنهكه تعاطى الحشيش ، وهد قوى قادته الفساد والنساء .

– أنتم ترفضون التعاون معنا إذن ؟

– نحن نود أن نشترك فى القضاء عليكم ولو بأقل القليل .

وعادوا وحكوا القصة ، واستمعنا إليها دون تعليق يذكر ، ثم انصرف كل واحد إلى شأنه من قراءة أو كتابة أو تسميع للقرآن الكريم .

كان المعتقل كالبحر الزاخر تتقاذفه الأمواج ، ممثلة فى التيارات المختلفة ، والحوادث الكبيرة التى تمر بالمعتقلين ، أو تحدث فى مصر .

وأعلنت حالة الطوارىء فى المعتقل .

وهذا تمهيد لمعتقل كبير فى طريقه إلى القدوم ، أو زائر كبير من رجال الأمن .

وكان المعتقل الكبير هو المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين العالمية المرحوم الأستاذ حسن الهضيبى .

وكانوا قد حكموا عليه بالسجن خمس سنوات ثم تدخل بعض رؤساء الدول ، فغيروا مكان سجنه إلى بيته بدلا من الليمان ، وسجنوه فى بيته بينما بقية أسرته فى المعتقل .

وقالوا : إن تصريحا قد نشر فى جريدة أجنبية لأحد الإخوان الذين يعيشون فى الخارج أن مؤتمرا قد عقد فى المغرب حضره بعض كبار الإخوان الذين استطاعوا النجاة من بطش عبد الناصر ، وإنهم حددوا لجنة تقوم بعمل المرشد العام حتى يتمكن من ذلك بعد انتهاء محنته .

وقالوا : إن ضابطا كبيرا ذهب إلى زيارة المرشد فى بيته وهو الشيخ الكبير الذى لايترك الدواء لحظة ، وسألوه عن رأيه فى هذه الأخبار ، وقال لهم الرجل :

– لاأعرف شيئا من هذا .

فقال له الضابط الكبير وكانوا قد قالوا إنه أحمد صالح داود :

– عظيم ! عليك إذن أن تصدر بيانا تستنكر فيه هذه التصريحات ، وسوف ننشرها فى الصباح فى كافة الصحف اليومية ، وسوف تطيرها وكالات الأنباء إلى كافة أنحاء العالم .

ثم أضاف مهددا :

– ومن ثم تظفر بالراحة فى بيتك ، وتنعم بالدفء فقد اقترب الشتاء .

وقام المرشد العام مثقلا بوطأة المرض والضعف والشيخوخة وقال :

– استأذنك لحظة .

وغادر صالون بيته وظن أحمد صالح داود أنه قد ذهب ليأتى بورقة وقلم . وبعد برهة عاد الرجل وقد ارتدى ملابسه وفى يده حقيبة صغيرة تحمل بعض حاجياته . وقال لهم فى هدوء شديد :

– إنى على استعداد .

وقام الضابط الكبير ومن معه واصطحبوا المرشد العام لجماعة الإخوان العالمية إلى باب العمارة ، حيث كانت سيارات تملأ المكان ، وانطلقت وأمامها واحدة تملأ الشارع بالعويل الصادر من صفارتها .

ولانعرف أين ذهبوا به قبل أن يأتوا إلى معتقل طره السياسى .

وأودعوا الرجل فى مستشفى المعتقل ، وفرض حظر التجول فى جميع العنابر حتى تم دخوله بسلام ، وظهر الجند و (الشاويشية) فى كل مكان ومع كل تحرك ، فكل من له عمل يسير وفى صحبته أحد الشاويشية الذين زاد عددهم بشكل ملحوظ . ومنع الاتصال بالمرشد العام تماما من جانب المعتقلين ، ولايتصل به إلا الموظفون الرسميون من ممرضين وأطباء وغيرهم ، ثم سمحوا لأبنائه الثلاثة بزيارته واحدا بعد الآخر ، المهندس أحمد أسامة الهضيبى ، المستشار محمد المأمون الهضيبى ، إسماعيل الهضيبى المحامى ، واستطاع الأستاذ المأمون الهضيبى أن يدبر لى لقاء مع فضيلته فى المستشفى ، وتم هذا اللقاء بتعاون جميع الموظفين الرسميين الذين يقومون بالاتصال به .

وكان الغرض من هذا اللقاء أن نعرف وجهة نظره فى كثير من الأمور ، فالجميع يريدون الاستفسار منه عن أشياء ويستحيل ذلك .

ودخلت الحجرة ورأيت الرجل الجالس على سريره البسيط المتواضع ، ويرتدى (روبا) أكثر بساطة ، وطاقية على رأسه ، ونظارة طبية تبدو من خلفها عينان حادتان تدلان على قوة الشكيمة وشدة البأس ، روح عظيمة تطل منهما ، رغم وهن الجسد وضعفه وكثرة الأمراض . كأن الرجل هو آخر الرجال العظماء ، فقد كان الوحيد الذى صمد أمام الإرهاب وشدة البأس ، ولم تلن قناته لحظة ، ولم يعرف الضعف طريقه إلى روحه أبدا ، ورفض مهادنة الطاغية رغم منطقية كافة الضغوط التى فرضت عليه ، رجل وضعته الظروف على رأس أكبر جماعة إسلامية فى العالم فى وقت ضربها ومحاولة القضاء عليها ، وصدرت ضده أحكام مختلفة من سجن إلى إعدام ثم إلى سجن ، وتخلل ذلك كله الاعتقال والإهانة والتعذيب أخيرا ، والرجل هو هو لم يتغير .

وكان للرجل سمات عديدة عجيبة : فهو حكيم فيلسوف ، صاحب نظر ورأى فى الكون والحياة والإنسان ، وهو فقيه قد درس الفقه وله فيه نظر واجتهاد ، وكان أديبا بليغا يتذوق الشعر ويحفظه ، ويستشهد به فى المناسبات ، وكان ساخرا يستملح النكتة فى بديهة حاضرة وذهن يقظ .

ومرة فى السجن الحربى ، والحرس يطارده حتى وهو يغسل وجهه ، التقى بولده الأستاذ اسماعيل الهضيبى خلسة ، فابتسم له معزيا ومخففا وهمس له بأبيات من شعر أحمد شوقى فى مسرحية مصرع كيلوباترة :

ياشرميون تعلمى الدنيا ... وياهيلانة اختبرى الزمان القاسى
إن التى حرست بأبطال الوغى ... باتت تصانع سفلة الحراس

ثم ذهب إلى زنزانته بعد أن أظهر روحا عالية ليشجع أولاده جميعا من المسلمين . وكان متواضعا ، ألوفا ، ودودا ، مع جميع الناس ، لين الجانب رقيق الحاشية إذا تخاطب معه أحد ، ولكنه

شديد الاستعلاء والأنفة عظيم الكبرياء إن اضطر للتعامل مع أعدائه أو سجانيه ، وهو يخاطبهم بلهجة من يقدر ويملك ، وكأنه المنتصر أو هو المحقق الذى يجرى معهم التحقيق وليس العكس ، وكانوا يهابونه مهابة شديدة رغم كونه أسيرا عندهم ، وهو أكبر من أن يُسَاوَم على شيء مهما عظم ، وأظنه من قلة عرفوا أن الدنيا معبرة إلى الآخرة ، وأن السلوان الأعظم فى ظل العرش ، حيث لاجلبة ولاضوضاء ولاملك ولاسلطان ، ولايوجد إلا ديان واحد : هو الله سبحانه وتعالى .

وكان الناس جميعا يحبونه حبا ملك عليهم قلوبهم فهو أبوهم الروحى ، ومنه يستمدون طاقتهم فى الصمود ، ومن روحه يأخذون القبس الأعظم فيستعينون به على مرارة الحبس والاعتقال ، ولم يكن يعد بنتائج ولكنه كثيرا مايقول : إن المسلم الحق هو الذى يؤدى واجبه كاملا ، ولايفكر فى نتيجة ما على هذه الأرض .

أذن لى الرجل بالجلوس ، وجلست خاشعا عند طرف السرير أنظر فى وجهه ، ولاأعرف كيف أتكلم ، أتأمل تقاطيعه وأفكر كيف استطاع هذا الرجل أن يغيظ جمال عبد الناصر الذى دوخ الناس جميعا ، ويطول الصمت ولا أجد ما أقول ، وأنا الذى جئت لأسأل ثم أخرج للمعتقلين فأحكى لهم ماسمعت .

وقطع المرشد حبل الصمت سائلا :

– كيف حال جميع الإخوان ؟

– بخير يسلمون على فضيلتكم ويدعون لكم .

وسرح الرجل ببصره قائلا :

– قد مضت أيام التعذيب والأجر ووفيت كل نفس ماكسبت ، وهذه هى أيام العبادة والاستغفار وذكر الله ، قل هذا للإخوان وقل لهم أيضا إنها أيام قد لاتعود فتزودوا منها وخير الزاد التقوى .

ورأيتها فرصة للحديث وتشجعت وقلت له :

– هل أقول هذا للمؤيدين أم للمعارضين .

وأنا أقصد بهذا الذين يكتبون برقيات التأييد والذين يمتنعون .

وقال الرجل :

– « هم جميعامن الإخوان المسلمين ، وهذه ظروف غير عادية ، ولاتحكموا على الناس وهم يحملون أثقالا ، انتظروا حتى يخفف الله عنهم وعنكم ، وهم جميعا من الذين امتحنوا « وماكان الله ليضيع إيمانكم » .

– لو كنت مكان الحكومة ماذا كنت تفعل ؟

– كنت لا أفعل شيئا واحدا مما فعلوه .

– ماذا ينبغى على الحاكم أن يفعل لخدمة الشعب والبلاد ؟

وتأمل الرجل قليلا ثم أجاب :

– « الحاكم المخلص فى هذه البلاد هو الذى يحكم بالإسلام ، هو الذى يكون قدوة للناس فى كل أحواله ، والناس على دين ملوكهم ورؤسائهم ، يكفى أن تتوفر النية فى قلبه فيتحسن كل شىء ، لن يجتمع حوله إلا أهل الخير مادام لايظلم ولايسرق ولايستأثر بمال أو برأى » .

– ماهو مستقبل الإسلام فى رأيك ؟

– تقصد مستقبل المسلمين ؟

– نعم .

– سوف يتحقق الإسلام فى يوم قريب فى نفوس المسلمين ، ولعل الهزيمة التى حدثت فى يونيو تدفع الناس إلى الدين كحل لمشكلاتهم ، ولتخلصهم من الهوان الذى لحقهم ، ربما لو أذن الله لك فى الخروج من هذا المعتقل فستجد أحوال المصريين قد اختلفت سوف تجدهم أقرب للإسلام مما تركتهم ، مستقبل المسلمين فى مصر يبشر بالخير .

– إلى أى مدى يافضيلة الأستاذ فى رأيك ؟

وسرح الرجل بخاطره قليلا ثم أجاب ببسمة ودودة :

– سوف يحكمون هذه البلاد يوما ، ولعله قريب .

– تقصد أنك سوف تكون على رأس حكومة فى مصر ؟

وزادت ابتسامة الأستاذ الهضيبى :

–« أنا شخصيا ؟ لاأظن . ومماالفرق لو حكم واحد من إخوانى أو أبنائى ؟ هذا لايهم . المهم أن تسود الأفكار التى نؤمن بها ، عقيدتنا تظلل الناس ، وشريعة الإسلام تنير لهم الطريق فى المدلهمات، لايهم شخص الحاكم ، ولكنى أؤكد لك ، لقد ضاع سلطان عبد الناصر بعد هزيمة يونيو ، وظهر نظامه عاريا للناس ، والبديل هو الأصل ، والأصل هو الإسلام ، والإسلام هو طوق النجاة ، وهزيمة إسرائيل لن تأتى على غير يد المسلمين ، ربما تشهد هذا فى حياتك قبل أن تموت ، وعندها سوف تدرك أن أيام السجن والاعتقال التى قضيناها لم تذهب عبثا ، نحن ندفع ثمن المستقبل ، ونضحى من أجل الأجيال القادمة بحق ، وسوف يسود الإسلام ، ويرتفع شأن المسلمين ، لقد بدأت خطوات كثيرة من الألف خطوة التى تنتهى بسيادة الإسلام ، ولاتعجب فهذه الحكومة الفاسدة ومايمكن أن يأتى بعدها من حكومات مثيلة ، تدفع عجلة الإصلاح بفسادها ، وتقرب المسلمين من دينهم بفسق رجالها ، هم يقدمون خدمة عظيمة من حيث لايدرون ، المشكلة أننا مسلمون ، نعم نحن مسلمون قد ابتعدوا عن دينهم ، لم يعد للدين فاعلية فى حياة الناس ، وهم فى حاجة إلى صدمات كبيرة حتى يفيقوا ، وقد بدأت الزلازل والحوادث العظيمة » .

– بماذا تنصح الإخوان ؟

– « أن يحب كل واحد منهم الآخر ، وليعكفوا على قراءة القرآن ، وليتجملوا بالصبر ، وأخبرهم بقول رسول الله ﷺ : طوبى

لمن أمسك الفضل من قوله . ولاشك أنهم يعرفون هذا الحديث الشريف ، وأخبرهم أيضا أن أشد ساعات الليل ظلمة هى أقربها لطلوع الفجر » .

وسألت الرجل أسئلة كثيرة وأجاب عنها واستفاض فى الحديث ، وخرجت وحكيت للناس ماسمعت ، وقد سطرت ماوعته الذاكرة ، وقد كان الرجل على يقين كامل وإيمان عظيم ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، لايداهن فى دينه ، ولايقبل الدنية ، ويقف كصخرة صلبة تعييها المعاول وقد قال لى فى عزة وشموخ :

– أنا الإخوان المسلمون : لو استسلمت لاستسلموا ، وأنا واقف على أمر هذه الجماعة لأنها بقية ممن ينهون عن الفساد فى الأرض .

وكان ذلك تعليقا على ذكر من يؤيد الحكومة ويسير فى ركابها .

وقضى الرجل سنين فى المعتقل ، يحجب عن الرؤية أحيانا ، وفى غفلة من الحراس أو فى لحظة من فوضى ، يذهب إليه جميع المعتقلين ليهنئوه بالعيد ، جميعهم بلا استثناء ، وكان غير الإخوان ينظرون إليه فى نزهته اليومية وحيدا عدا الحرس ، ويتأملون الشيخ فى إعجاب واحترام ، أهذا الرجل الضئيل استطاع أن يقف وحده فى وجه نظام طاغ عنيد ؟ استطاع أن يقول : « لا » بملء فمه دون خوف من قتل أو سجن .

وقال له واحد من الإخوان مرة فى مرح ودعابة :

– يافضيلة المرشد ، نحن نبتلى بالسجن والفقر ونقص الأنفس والثمرات ، ألا نبتلى بالغنى والثروة والجاه ، لماذا لانجرب فى هذا الابتلاء ؟

وقال الرجل بحكمة السنين التى يحملها :

– سوف تبتلون بهذا ، نعم سوف تبتلون بهذا ، ولكن هل تصبرون ؟

ومرت السنون وابتلى كل من شهد هذا الحديث ببلاء الغنى والثروة كأن الرجل كان يقرأ فى كتاب الغيب المفتوح !

وجاء يوم أصابته نوبة قلبية ، وارتفعت الأصوات بالدعاء فى كل مكان بالمعتقل أن يخلص هذا الشيخ الفانى من آلام المرض والحبس ، وعز الدواء وكان لابد من نقله إلى مكان مناسب لعلاجه ، واشترط الشياطين أن يتقدم المرشد العام بورقة إلى الحكومة يطلب فيها العلاج ، ورفض الرجل ذلك وقال : المريض لايتقدم بورقة إلى أحد يطلب فيها علاجه ، وعلى السجان أن يعالج مسجونيه ، ومكثوا حوله طوال الليل يساومونه على صحته ، والرجل يتلو القرآن متحملا آلامه فى هدوء ، وأذن الله له بشفاء ، وشاءت إرادة الله أن يبقى حتى يشهد موت خصمه المبين .

﴿ ... **ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ...** ﴾ ٥ التوبة آية ١٤ ، ١٥

كانت حلقات التعليم تنتشر فى كل مكان بالمعتقل ، جميع العلوم والتخصصات كان هناك من يتقنها أو هو أستاذ فيها ، فيجلس إلى ناحية ويقوم بتدريس المقرر فى علوم اللغة العربية مثلا ، أو فى نظرية (الكمبيوتر) ، فهو يقوم بتدريس المنهج كاملا فى أيام معدودة ، ويقوم الناس من عند الأستاذ ويأتى آخرون وهو واقف فى الوقت المخصص يقدم العلم ويشرح ويفسر .

وكان هناك منهج لمحو أمية من لايتقنون القراءة والكتابة ، ولم تنته أيام المعتقل حتى أتقن كل الأميين القراءة والكتابة .

وكان هناك من يدرس الموطأ للإمام مالك ، والفقه على المذاهب الأربعة ، وشرح كتاب الخراج لأبى يوسف ، وسائر أمهات الكتب فى الفقه والعلوم الإسلامية .

وكان الشيوعيون ينظرون إلى نشاط الإخوان بكثير من الغيرة والحسد الممزوجين (مع ذلك) بالإعجاب الشديد .

وصار معظم أصحاب « النشاط المعادى » من الإخوان المسلمين .

ولم تكن الأمور هادئة فى هذا الجو العلمى ، بل كانت القلاقل تثار والتدريبات الممسوخة التى يجريها عبد العال سلومة فى يأس قائمة على حالها ولكن كانت قد فقدت فاعليتها وتأثيرها على الناس .

وكان عنبر اثنين هو أعظم العنابر خطرا على الإدارة والحكومة ، وكان فى تسلسله يبدأ بغرفة اثنين حيث بها شكرى مصطفى ومحمود حلمى ، والشيخ على اسماعيل ، وعبد الله بن أحمد السماوى وآخرون، يبلغ عددهم حوالى العشرين حيث الحدة فى تناول الأمور من وطأة الاعتقال الرهيب والتعذيب البشع الذى كان .

ثم انتقل محمود حلمى واخرون إلى غرفة ثلاثة حيث محمد قطب « والعشرات » وهى طبقة الذين قضوا عشر سنين كاملة فى السجن دون تأييد ، وهؤلاء أقل حدة .

ثم غرفة أربعة فى العنبر نفسه حيث كنت هناك فى جوار أحمد عادل كمال ، وهذه طبقة الذين يقرءون ويكتبون ويكتفون بهذا .

ففى هذه السنين : عكف أحمد عادل كمال على إعادة كتابة مؤلفه الضخم « الطريق إلى المدائن » وكانت المباحث العسكرية قد استولت عليه عند الاعتقال ورآه ورقا يتبدد فى الهواء أمام عينيه ، بعد أن قضى فى أعداده سنين ، وأعاد الرجل الكتابة من جديد فى صبر وجلد ومثابرة، وكان يقوم على تهريب الوريقات التى ينتهى من كتابتها فى أثناء الزيارة ، وكم هوجم العنبر مرات كثيرة للتفتيش عن هذا البحث لإعدامه ، وكانت هناك نوادر كثيرة تحدث فى هذا المجال : فمثلا هاجم العنبر ضابط ومعه الجند ، وتو جهوا مباشرة إلى « نمرة » أحمد عادل كمال وطلب التفتيش وكان عادل

كمال يخفى أوراق بحثه فى مسند كرسى فى حيازته ، وتظاهر بالارتباك والحيرة وسأل الضابط :

– ماذا تريد ؟

– التفتيش !

وصارت عينا أحمد عادل كمال تدوران فى المكان ليلفت نظر الضابط إلى بعض الأماكن التى يمكن أن يكون بها شىء ، هكذا أوحى إليه .

وتعجل الضابط :

– نريد التفتيش ، لاوقت لدينا .

وبسرعة قدم أحمد عادل كمال الكرسى وبه البحث المختبىء وقال :

– تفضل استرح ودع الجند يفعلون مايشاءون .

وجلس الضابط على الكرسى وبه مايبحثون عنه ، ووضع ساقا فوق ساق ، وأشعل سيجارة ، وقلب الجند المكان بلا فائدة .

وكانت غرفة اثنين حيث شكرى مصطفى ومن معه تضطرم بالثورة العارمة ، شكرى يريد أن يعلنها حربا على العالم أجمع ، ومن ليس معه فهو من الكافرين ، وعنبره هو سفينة نوح والناجى من ركب فيها ، ومن ليس معه فهو عليه ، كانت نفسه تضطرم بالغضب والرغبة فى الانتقام ، ويعلن هذا فى كل مكان ولكل شخص ، وكلمه العقلاء والحكماء بلا فائدة ، وصار الغضب يغلى فى صدره حتى جافاه النوم فهو يقطع الليل جيئة وذهابا فى الممر الطويل صامتا متأملا يفكر كيف يبدأ ومتى يخرج ، واستثمرت الإدارة هذه الروح فى إجراء التدريبات السمجة .

وانتقل محمود حلمى بغضب أقل ، وتعقل أكثر إلى عنبر ثلاثة ، وكانت الأفكار تضطرم وتتأجج .

وكان محمود حلمى يرى أن سبب فساد هذا العالم هو عبد العال سلومة.

وفى يوم من أيام الصيف القائظ ، وعند إشتداد الظهيرة حيث عكف الناس فى داخل الغرفات يحتمون من الحر ، جاءنى الأستاذ محمد هلال المحامى وكان رجلا فاضلا صاحب دين وورع وله معرفة قديمة بعبد العال سلومة ، وهو يستخدم هذه المعرفة القديمة لتخفيف وطأة السجن والحبس على الناس ، ونجح الرجل فى ذلك كثيرا ، وتعجبت من زيارته ، وهمس لى :

– أريدك فى الخارج .

وقلت متعجباً :

– فى هذا القيظ ؟

– نعم .

وخرجت معه مستسلما ، وكانت الشمس تشوى المكان ، ولايوجد مخلوق واحد فى الفناء ، ومشى الرجل صامتا لايتكلم ، ورابنى صمته وأقلقنى ، وكنت أسأله ولايرد :

– ماذا هناك ؟

ولما وصلنا إلى مكان آمن خلف العنابر وقف ووقفت ، وأخرج من جيبه مظروفا ناوله لى :

– اقرأ هذا .

وأمسكت بالمظروف وهو من النوع الذى يستخدم فى البريد الجوى ومكتوب عليه من الخارج العبارة الآتية :

« إلى السفاح الأكبر عبد العال سلومة المجرم » .

وتجمد الدم فى عروقى فقد كان هذا خط شقيقى محمود حلمى ، وأسرعت بفتح الخطاب وقراءته ، والأستاذ محمد هلال يرمقنى صامتا وأنا أقرأ الكلمات النارية ومضمونها : إن محمود حلمى يخبر القائد أنه سوف يقتله لشروره ولن يجديه أى شىء فقد أعد سكينا قد سنها فهى حامية ، وسوف يغرسها فى كرشه إن لم يكن اليوم ففى الغد بالتأكيد ، ولكنه لن يفلت منه مهما فعل .

ونظرت إلى محمد هلال فى ذهول لا أكاد أصدق وقال لى :

– مارأيك ؟

وقلت :

– كيف عثرت على هذه الرسالة ؟

– أعطاها شقيقك للمراسلة الذى يقف على مكتب عبد العال وقال له هذه الرسالة له ، ولكن الرجل أعطاها لى .

– ولم يقرأها عبد العال ؟

– ولم يقرأها عبد العال ، ولكن ليست هذه هى المشكلة ، ليست الرسالة هى المشكلة بل هو فحواها ، حاول أن تفكر معى ، محمود حلمى يريد قتل عبد العال سلومة ، ويعلن هذا فماذا نفعل ؟

– فى الحقيقة لست أدرى .

– ماذا لو ذهبت إليه وتكلمت معه ؟

– وماذا أقول له ؟ هل أقول له لاتقتل عبد العال ؟

وأجاب الأستاذ محمد هلال فى ضيق ظاهر :

– لاأعرف ماذا ستقول له ولا أقترح عليك شيئا ولكن يجب أن تقابله .

ووافقته وعدت واجما إلى العنابر ، وكانت أفكارى تزعجنى ، ويد ثقيلة تعصر قلبى ، فهذا الشاب الغض مثل شقيقى محمود حلمى الطيب القلب ، وكيف حولته قسوة السجن والسجان إلى إنسان عصبى المزاج يفكر فى القتل ، أما كان يكفى مانحن فيه من عذاب فيأتى واحد مثل عبد العال سلومة ، فيزيد فى وطأة مانحن فيه ، وهؤلاء الذين أمسكوا بنا قد نسوا الآخرة ولم يعد يعنيهم شأنها فى قليل أو كثير ، وهم جبابرة متغطرسون وينظرون إلينا كدمى يحركونها كيف شاءوا ، ولكنهم يخافوننا أكثر من خوفنا منهم فى نفس الوقت ، يشعرون بجرمهم وبنهايتهم السوداء فى الدنيا أو الآخرة ، فهم يحاولون أن يؤجلوا هذه النهاية المرة بالضغط علينا وإيذائنا ، وإفساد نفوس غضة بريئة لم يكن لها من ذنب إلا أن تقول ربنا الله.دخلت غرفة ثلاثة فى عنبر اثنين ،

عنبر الخطرين حيث أعيش ، ولكن ليس فى الغرفة نفسها ، وكانت الغرفة يلفها جو رمادى ، ففى هذه الأثناء كان يمكن لكل واحد أن يصنع لنفسه « كابينة » من البطاطين بحيث يستطيع أن ينفرد بنفسه داخلها ، فهى شىء أقرب إلى معسكرات الحجيج عند « مطوف » غادر آكل للحقوق فى موسم قد ازدحم بالناس .

ووقفت أمام خباء محمود حلمى وناديت :

– ياأخى محمود .

وأتانى صوته برما من داخل الخباء :

– نعم . ماذا تريد ؟

واقتحمت عليه المكان فوجدته يتناول طعام الغداء وقد غرس سكينا فى قطعة من الخشب بجانبه وتوجست شرا :

– هل أستطيع أن أتكلم معك قليلا ؟

وأجاب مزمجرا :

– لست أصما ، تكلم بما تشاء ؟

وهمست :

– لعلى أريد أن أفضى لك بسر ولاأريد أن يسمعه أحد .

وأجابنى بصوت كأنه يأتى من العالم الآخر :

– اسمع . لاوقت عندى ، إن كان عندك ماتود قوله فأنا أسمع ، ولاأخفى شيئا عن الإخوة هنا ، وأنوى أمرا عظيما أريد أن أتهيأ له .

– تنوى قتل عبد العال بهذه السكين ؟

وأجفل وتوقف عن الطعام :

– من أخبرك ؟

– ألم ترسل إليه خطابا بهذا المعنى ؟

– وكيف عرفت ؟

– لاشىء يخفى فى هذا المعتقل .

وبدت عليه الحيرة قليلا ثم زمجر قائلا :

– لايهم على أى حال أن تعرف أو لاتعرف ، سوف أفتح كرشه إن شاء الله بهذه السكين .

– لماذا ؟

والتفت إلىَّ دهشا :

– لماذا ؟ ألا تعيش معنا فى المعتقل ؟ ألا ترى مايفعل ؟

– هبه يستحق القتل . هل تظن أنهم يمكنونك منه ؟ .

– قد فكرت فى الأمر وخطتى واضحة فى ذهنى .

– ولكن لماذا أرسلت إليه تخبره ؟ لقد نبهته وهو يأخذ حذره .

وضحك محمود حلمى ساخرا :

– قد أعددت الخطة ، وعملت حسابا لهذا ، سوف يحيط نفسه بالحرس ولكنى أعرف كيف أصل إليه .

– سوف يقبضون عليك قبل أن تراه .

وضحك عاليا فى سخرية :

– يقبضون على ؟ أين تظننا نعيش ؟ نحن مقبوض علينا منذ سنين .

– لماذا أرسلت إليه الخطاب ؟

وكان قد فرغ من الطعام فاعتدل إلىَّ وهو يلعب بسكينه :

– سوف أسليك بالقصة .

– هذه قصة غير مسلية على الإطلاق .

– هذا من وجهة نظرى على الأقل .

– تفضل .

– لو وضعت هذا السكين فى قلبه فسوف يموت فى لحظة واحدة .

– ماالضرورة إذن فى إرسال الخطاب إليه ؟

– انتظر . سوف اشرح لك . لو مات فى لحظة فلن يتعذب طويلا ، ولكنى أرسلت إليه الخطاب ليعيش ساعات من الرعب والفزع ، هذه واحدة .

– والأخرى ؟

– لن أضع السكين فى قلبه ، سوف أمزق بها كرشه ليتعذب أياما قبل أن يموت ، ونحرق قلبه على الدنيا التى يغادرها ، والآمال التى ضاعت منه ، وقلب أهله عليه .

وشعرت بمرارة وتعاسة لاحد لها وقلت له :

– هذا جميل والله .

– هل رأيت ؟ كنت على يقين من أن القصة سوف تعجبك .

– هذه ليست قصة ، هذه مأساة إغريقية ، ولكنها تحدث الآن .

– ماذا تعنى ؟

–أخبرنى . وكيف ستتمكن منه رغم تحذيرك له ؟

– هذا هو السر الذى لاأستطيع البوح به لأحد .

وقلت له مراوغا :

– وهل تظن أننى أشى بك أو أفشى سرك ؟

– ليست المسألة هكذا ، ولكنى أود نجاح العملية ، وأريد أن تمر بنجاح .

وقلت له ببطء :

– وهل تعرف مصيرك بعد هذا الحادث ؟

وأجاب ببداهة :

– بالطبع . سوف أقتل ، إما برصاص الحرس ، أو المحاكمة ثم الإعدام .

– جميل والله . شىء جميل جدا !

– سوف أقدم حياتى فداء لكل الأخوة من المعتقلين .

وتفرس فى وجهى قليلا :

– لايبدو عليك السرور لمقتل عبد العال سلومة .

وكان صدرى يمور بالغيظ والشفقة ولكنى كتمت هذا وتظاهرت بعدم الاكتراث :

– بالفعل لست سعيدا لهذه الفكرة . هى غير مضمونة أولا .
وقال بسرعة :
– اطمئن سيموت مائة فى المائة . وماذا عن ثانيا ؟
– ماذا يفيد قتله ؟ ألف عبد العال سلومة عندهم .
وقال باستنكار شديد :
– لا .. لايوجد مثل هذا الخنزير فى الدنيا ، هذا ليس له مثيل ، ومن يأت بعده فسيسير مثل الكلب وإلا ظهر له محمود حلمى آخر .

وتملكتنى حيرة شديدة فالفتى يتكلم بهدوء وثقة وإطمئنان ولكنى قلت :
– قص علىَّ الخطة حتى يمكن لنا أن ننقحها .
واعترض بسرعة :
– لادخل لك بشىء ، ولا علم لك بالموضوع ، لاأريد أن أشرك أحدا فى هذه القصة ، يكفى شهيد واحد عوضا عن هذا الكلب .
– فى الحقيقة أنا غير واثق من نجاحك .
وأجاب فى بساطة :
– سوف نرى على أى حال .
وتظاهرت بالتفكير قليلا ، وقد كنت أفكر بالفعل :
– اسمع . عندى فكرة .
– ماهى ؟
– لماذا لانتركه لله سبحانه وتعالى ليحاسبه ؟
وأجاب محمود حلمى :
– هذا ماسأفعله بالضبط .
وشعرت بالفرحة :
– هل غيرت رأيك ؟
– كلا . أنا لا أستطيع حسابه ، ولكنى أرسله إلى الله سبحانه وتعالى فى سرعة ليتولى هو حسابه .

– ولماذا لاننتظر عليه قليلا ؟ ماوجه العجلة ؟ فليحاسبه الله فى الوقت الذى يريد ، لماذا نتدخل فى إرادة الله ؟

– نحن ننفذ إرادة الله .

وشعرت بعقم الحديث فتكلمت معه بحدة شديدة وبحزم بالغ :

– اسمع . ماتنوى فعله ضرب من ضروب العبث ، وهى محاولة لن تنجح ، وسوف يسقط فيها شهداء كثيرون ، لست وحدك الذى يضرب برصاص الحرس ، سوف يطلقون الرصاص دون تمييز ، والله وحده الذى يعلم النتيجة فرفقا بى وبإخوانك ، والصبر أولى وأجدى .

– الحياة فى المعتقل سخيفة لايتمسك بها عاقل .

وصرت أتوسل إليه وأناشده الله والرحم أن يصرف من ذهنه هذه الفكرة ، ورفض مناقشة العدول عن قتل عبد العال رفضا تاما .

وخرجت من الغرفة أبحث عن بعض أصدقائه ، ومن يرتاح إليهم ويثق فيهم ، ووجدت الأستاذ عبد الحليم خفاجى ، والدكتور فاروق عباس الذى أيقظته من النوم ، وأريتهم الخطاب وطلبت منهم المعونة ، وأسرعوا معى إلى لقاء محمود حلمى ، وفى الطريق وجدنا الأستاذ محمد هلال يقف فى ناحيةمن الظل وسألنا متلهفا :

– ماالأخبار ؟ هل وصلتم إلى نتيجة ؟

– ليس بعد .

ودخلوا إليه وجمعوا له آخرين ، ومازلنا نحاوره ساعات حتى هدأت نفسه ، ولم نتركه حتى عاهدنا جميعا عن عدوله فى قتل عبد العال سلومة .

وكان المراسلة قد أخبر عبد العال سلومة بقصة الخطاب وماهو مكتوب عليه من الخارج ، وعاتب فى هذا الأستاذ محمد هلال ، لأنه حجب الخطاب وفهم من الحديث أنه مجرد خطاب غاضب من شخص مضيق عليه ، واستدعانى عبد العال :

– ماذا كان فى الخطاب ؟

– لم أقرأه . وماذا يمكن أن يكون فيه ؟ شخص غاضب مضيق عليه ، قد حبس بغير ذنب فهو يعبر عن سخطه وضيقه .

وسرح عبد العال سلومة فقد كان جبانا :

– شخص مثل هذا خطر جدا ، هذا يمكنه أن يرتكب جريمة ، يعنى كان خطابا مليئا بالسباب مثلا ؟

– اسمع ياعبد العال بك أنا أشير عليك ، محمود حلمى شاب صغير وقد تم اعتقاله دون سبب مثل الآخرين ، وهو مندفع ومتهور ، والطريقة الوحيدة لتجنب المشاكل أن يصدر أمرك باشتراكه مع مجموعة الخدمات فى المعتقل ، فيعمل طول النهار ومن ثم يأتى الليل وهو منهك فينام وينسى أفكاره المزعجة .

واستحسن عبد العال سلومة الفكرة وقال :

– أحسن مكان هو المطبخ ، سوف يكون مسئولا عن المطبخ من الغد . وأمنت على كلامه وأنا أشعر بالقلق والتوتر ، فالمطبخ معناه سكاكين كثيرة وسواطير لاحد لها ، والمطبخ على مقربة من مبنى الإدارة ، وعبد العال سلومة يذهب إلى هناك وحده بين الحين والآخر للتفتيش .

وعمل محمود حلمى فى المطبخ ، وتحسن الطعام ، وزادت كمية اللحم المقدمة لنا ، وعرفنا السر فقد كان العساكر (والشاويشية) يأخذون نصفها ولما جاء محمود حلمى منع كل هذا فى قصة طريفة ؛ فقد جاءه فى أول يوم من حكمه فى مملكة المطبخ العسكرى الذى يأخذ طعام حضرة الصول ، وقدم له محمود حلمى الأرز وفوقه قطعة من اللحم وبقية الطعام ، ونظر العسكرى فى دهشة وقال :

– ماهذا ؟

– هذا طعام حضرة الصول .

واستنكر العسكرى هذا وقال :

– لا . هو يأخذ أكثر من هذا !! قروانة لحمة كاملة ، وكذلك سائر (الشاويشية) ليس أقل من قروانة .

وكلمه محمود حلمى فى حدة وفى يمينه السكين ، فقد كان يعمل وقتها :

– انت عارف قروانة لحمة يعنى إيه ، يعنى أكثر من اثنين كيلو .

واحتدم النقاش بينهما وأنهاه قائلا :

– اسمع أرسل حضرة الصول ليأخذ طعامه بنفسه .

وكان حضرة (الصول) قد استبطأ حضور الطعام ، فجاء بنفسه إلى المطبخ وسمع الحوار ورأى الطعام الذى صرفه له محمود وهاج وماج ، فما كان من محمود حلمى إلا أن أمسك بتلابيبه وضربه (علقة) ساخنة ، وانقذوه من يده بصعوبة بالغة ، واجتمعنا على الرجل واتفقنا معه ألا يخبر أحدا بهذه العلقة ، وألا يصل أمرها إلى الإدارة العليا ، وأرضيناه نظير مبلغ دفع له !

وحسنت الأحوال وزادت كمية اللحم للمعتقلين بعد أن حرم العساكر والشاويشية والصول من الكمية الزائدة المصروفة دون وجه حق .

وكان عبد العال سلومة يأتيه بالشاى الذى يرسل ضباطه للبحث عنه لأنه من الممنوعات ، ولكنه يناول محمود حلمى الشاى ويوصيه همسا :

– لاتدع أحدا يراك وأنت تصنعه وتشربه .

ويطمئنه ثم يوزعه على من يعرف ومن يريد ومن يحتاج .

أخذوا صلاح الأنور إلى مستشفى القصر العينى لإجراء جراحة الزائدة الدودية ، وأجريت العملية بنجاح ، وفى اليوم التالى لإجرائها غافل حراسه وهرب من المستشفى ، وهو فى حاجة شديدة إلى العناية والرعاية ، ولم يكن فى جيبه غير جنيهين ، وكان قد مكث فى السجن عشر سنوات دون تأييد ، وكان أيضا من تلامذة الشهيد سيد قطب المخلصين ، وبعد السجن جاءوا به إلى المعتقل ، فرؤية المدينة غريبة جدا بالنسبة له ، وقد بهره منظرها وتذكر السجن والاعتقال الطويل فقام من سريره وجرحه ينزف ، وخرج من عنبر الجراحة أمام نظر الحارس الذى ظنه ذاهبا إلى الحمام ، وغادر وركب الأتوبيس، وكان فى طريقه إلى شبرا .

وقامت الدنيا وقعدت ، وجاءت سرية من الجند على رأسها أحد الضباط وسألونا عن أمتعة صلاح الأنور ، وحملوها فى تحفظ شديد كأنما لايريدون للبصمات أن تضيع ، وتم هذا بين دهشة الجميع ، ماذا هناك ؟ لاأحد يجيب ، هل مات صلاح الأنور ؟ لاإجابة . وماهى إلا أيام حتى شاع خبر هروب صلاح الأنور من المستشفى . وصار بطلا فى نظر جميع المعتقلين ، ورويت الأساطير عن قصة هروبه ، وأصبح الآخرون يفكرون فى الهرب ويرسمون الخطط الساذجة ، وكلها لاتؤدى إلى شىء فخارج بوابة المعتقل مجهول لايعرفه أحد إلا أقل القليل ممن خرجوا لسبب ما ، أما جغرافية المكان ، وكم يبعد عن الطريق العام ، وماذا يمكن أن يلقاه الهارب إن نجح فى الخروج من البوابة ، فكل ذلك طلاسم لايمكن لأحد فكها أو فهم أسرارها .

وكان هناك حوذى يأتى مرة فى الأسبوع ومعه عربة عبارة عن خزان كبير للجاز ويجر هذه العربة حمار ، وصار من يفكر فى الهرب يتودد إلى ذلك الحوذى تمهيدا لتنفيذ هذه الفكرة ، وبعد قليل من الوقت فاتحوه فى أمر الهرب ، ورحب الرجل بالفكرة ،

فهو سيكسب من ورائها المال الكثير كما أفهموه ، وقال لهم: عليكم بالتخطيط والتفكير وعلىَّ التنفيذ ، والثمن تدفعونه بعد خروجكم .

ونمى الخبر إلى علمى ، فقد كان هناك من يصطفى بعض الإخوان ويسر له بالموضوع ليكون شريكا معهم ، واستحسنت الفكرة ساخرا ، وهى (كوميديا) ينبغى ألا تفوتنى فى هذا الجو الخانق ، ثم سألت عن أسباب التعطيل فى التنفيذ فقالوا:لاشىء ، مجرد رسم الخطة ، وقلت لهم:هذه النقطة هى أصعب شىء فى الموضوع على الإطلاق ، فقالوا : بسيطة جدا فقلت كيف ؟ فقالوا: بعض التفكير ، وسألت عن عدد الذين سينفذون الفكرة ووجدتهم يزيدون على الخمسين ، وانتظرنا موعد وصول الحمار وصاحبه ، وجاء ليفرغ الجاز المطلوب ، وكانت هناك بوابة جانبية يدخل منها تحت حراسة مشددة، وبعد تفتيش دقيق ، ويخرج بالطريقة نفسها .

ووقفنا على مقربة من البوابة فى داخل المعتقل لنعاين أداة الهرب الوحيدة ، وندرس المسألة من كافة جوانبها ، ورأينا الحمار وهو يدخل جارا خزان الجاز وهو ينوء من التعب وصاحبه يلهبه بسوط فى يده بلا فائدة ، ويبدو أنه حمار قد تجاوز الثمانين ، فهو ضعيف مريض ، مثقل بالأحمال ، ومر بنا صاحبه :

– السلام عليكم .

وردنا عليه السلام ، وكل واحد يتحسس الحمار وخزان الجاز فى فرح ظاهر وأمل مرتقب وسأل الرجل فى دهشة :

– كل هؤلاء الواقفين فى العملية ؟

وأجابه الذى اتفق معه بالإيجاب ، وبدت الدهشة شديدة فى وجه الرجل وعاد يسأل :

– كل هؤلاء ؟

وأكدوا له نعم ، وعاد الرجل يسأل :

– ولكن كيف يخرجون مع هذا الحمار ؟

– لاتشغل بالك ، نحن نعد العدة لكل شيء ، وسوف يخرجون على دفعات .

– على دفعات ؟ معقول على أى حال .

وبدت على الرجل أمارات عدم الفهم ولكنه عاد يقول :

– أنا تحت أمركم على العموم ، فكروا أنتم وعلىَّ التنفيذ .

وتعجبت من شجاعة الرجل وشهامته ومروءته البالغة ، وظننت أنه أبله أو متخلف ، ولكنى بالحديث معه لم أجده كذلك ، فقد كان رجلا من أولاد البلد يريد أن يقدم خدمة لهؤلاء الأسرى الذين يراهم كلما يأتى يصلون ويقرءون القرآن ، فهو يريد إنقاذهم وخدمتهم على أى صورة وبالكيفية التى يرونها ، ويتمنى لو يخرجهم من الحبس ، وهو يتعجل تنفيذ الخطة .

وما إن عاد بعد أسبوع حتى تضاعف عدد الذين يريدون الهرب على الحمار المسكين ،وقمنا باحصاء العدد ، عدد المشتركين فى الهروب فوجدناهم جاوزوا المائتين ، واتفقنا على الاجتماع فى موعد حضور الحمار وصاحبه لنضع الخطوط النهائية للهرب .

وكانت مظاهرة ، الرجل يفرغ الجاز الذى أتى به ، بينما المعتقلون يقدمون شيئا من الشاى له ، وبعض الطعام للحمار ويدورون حوله إعجابا وأملا راقصا مرتعشا يداعب القلوب فى غموض لانهاية له .

والرجل يقوم بعمله وهو يقلب النظر إلى الجمع بين الفينة والأخرى ، ويهز رأسه فى عجب شديد :

– كل هؤلاء .

وتأتيه الإجابة حاسمة ومطمئنة :

– نعم .

وارتفع اللغط من سيخرج أولا ، وكم شخصا فى المرة الأولى ،

وارتفع صوت يقول :

– لاتوجد إلا مرة أولى .

وأكد آخر :

– لن تسمح الحكومة بتكرارها ، فصاحب الحظ هو من يقع عليه الدور فى المرة الأولى .

واقترب واحد من صاحب الحمار وسأله هامسا :

– أرجو أن تقدم لنا بعض المعلومات ليتسنى لنا رسم الخطة بأحكام .

– تحت أمرك .

– كم شخصا يستطيع الحمار حمله وهو خارج ؟

وبدا على الرجل أنه لايفهم :

– كم شخصا ؟ الحمار أمامكم ، اركبوه وجربوا قوته ، لقد قلتم لاشأن لى بالتفكير .

أنا شخصيا لا أعرف كيف يمكن أن يخرج هذا الجمع مع هذا الحمار الهزيل أنتم تحتاجون إلى (ونش) وعدد كبير من « طواقى الإخفاء » لأن هذا العدد من الحرس ليس مصابا بالعمى .

– سنختفى داخل خزان الجاز .

– وكيف تدخلون فيه ؟ له فتحتان كما ترون ، واحدة بأعلى للملء ، وأخرى بأسفل للتفريغ ، وكلتاهما لاتكفى أكثر من يد للدخول أو الخروج .

– اطمئن . لقد عملنا حسابا لكل شىء .

– أنا تحت أمركم .

وفجأة أعلنت حالة الطوارىء فى المعتقل ، وغلقت الأبواب ، وصار الخروج والدخول بإذن بين الغرفات والعنابر ، وقال واحد :

– لقد اكتشفوا خطتنا للهرب . ماذا سنفعل ؟

وضحكت ساخرا :

– اطمئن هذه خطة محكمة لن يصلوا إلى سرها أبداً .

وجاءت الأخبار فقد أمسكوا بصلاح الأنور ، وجاءوا به مخفورا إلى المعتقل وهو فى حالة صحية سيئة ، واستطعت أن اجتمع به فى غرفته الانفرادية بالمستشفى حيث كان يعالج ، وكانت التعليمات أن لايتصل به مخلوق ، يريدون أن تظل الأمور فى أذهان الناس طلاسم وألغازا ، فهم قوة هادرة قاهرة ظافرة ، وقد أمسكوا بالهارب فى بساطة ويسر .

وحكى لى صلاح الأنور ماجرى له :

خرج من المستشفى يمسك أسفل بطنه بيده ، وركب (الأتوبيس) ، وسأله قاطع التذاكر :

إلى أين ؟

وكان لايعرف شيئا بطبيعة الحال فأجاب :

– آخر الخط .

وكانت الأتوبيسات وقتها تمكن الراكب من الجلوس فى بعض الأحيان ، وجلس صلاح الأنور بجوار النافذة يرقب الطرقات والمارة فى دهشة وانبهار ، ورأى ميدان رمسيس ومحطة السكة الحديدية وهو معلم يذكره ولاينساه ، وتجاوز الأتوبيس المكان فخاف من الضياع فنزل عندما توقف الأتوبيس ، ورأى مسجدا كبيرا فى أول شارع شبرا ، وكان رجلا قلبه معلق بالمساجد ، التى لم يرها منذ كان غلاما حدثا ، فبعدها سجنوه ثم اعتقلوه ولم يعرف من الأماكن غير العنابر والزنازين ومكاتب الإدارة حيث التحقيق بالسياط . ودخل المسجد وأدى صلاة العصر ، ثم خرج متلهفا يشترى طعاما وشيئا من المضادات الحيوية للعلاج ، وعاد مرة ثانية إلى المسجد ، وبقى فيه حتى أدى صلاة المغرب ، ثم غادره راكبا أتوبيسا وهو يفكر فى أهله وبيته يريد أن يراهم ولكنه كان يعرف أن كلاب الصيد تنتشر حول البيت ، فعاد حزينا خائبا وانتابته نوبة

قىء فى (الأتوبيس) ، وفزع الناس فقد كانت الكوليرا منتشرة فى تلك الأيام . وأغمى عليه وحملوه إلى مستشفى القصر العينى القريب ، وهناك قابلوه بإهمال شديد وأفاق وسأل فعرف أين هو ، وخرج فزعا من المكان ، وعاد إلى المسجد الذى كان فيه بأول شبرا وكانت أبوابه قد أغلقت ، فقضى الليل على عتبته ، وعند الفجر دخل وتوضأ وأدى الصلاة ، وجلس يفكر فى تصاريف القدر . لم تكن فى رأسه فكرة محددة أو هدف واضح ، جاءته رغبته للهرب فجأة ونفذها دون تمهيد ، وكان غاية أمله أن يظفر بشىء من الحرية ولو لساعات قلائل ، كان يعرف أن مصر المحروسة تعج بالحرس وأنها محروسة بالفعل ، وكان مريضا به جرح غائر يحتاج إلى عناية ، ولكن أمله فى الحرية ولو لساعات غطى على كل تفكير ، وألغى من رأسه كل حذر ، وصار منتهى مايريد أن يسير فى الأسواق ، ويأكل الطعام ، ويتصرف كيفما يشاء فى حدود الجنيهين اللذين فى حوزته ، وقد فعل .

انتهت نقوده ولم يبق معه إلا قروش لاتكفى إلا للعودة بصعوبة إلى المعتقل .

وبالفعل سأل عن الطريق إلى طره ودله أهل الخير ، وصار يركب تراما مرة ، ثم (أتوبيسا) مرة أخرى فالقطار من محطة باب اللوق ونزل فى محطة طره .

وصار يسأل الناس عن مكان المعتقل فهو لايعرفه إلا من الداخل ، ودله الناس وكان عليه أن يسير عدة كيلو مترات ، وهو الجريح المريض المثقل ، فكان يشير لعربات الشرطة والسجن حتى تحمله معها بلا فائدة !

وكان حول المنطقة بوابة كبيرة عليها الحرس والجند يحملون البنادق الآلية والرشاشات الفتاكة ، وألقى عليهم صلاح الأنور السلام ، وطلب منهم أن يسمحوا له بالدخول فقالوا :

– لابد من تصريح .

وحاول أن يشرح :

– هذا للزيارة وأنا لست كذلك .

وسأله الشاويش متهكما :

– وأنت تريد الدخول للإقامة ؟!

وأجاب صلاح الأنور فى بساطة :

– بالضبط .

وسأله الشاويش متهكما فى دهشة :

– تريد أن تدخل لتقيم فى المعتقل ؟!

– فى الحقيقة المسألة ليست هكذا بالضبط ، فى الواقع أنا أقيم فى المعتقل منذ سنوات عديدة ثم ، ثم ....

– ثم خرجت لتشم الهواء أو لتشترى بعض الأشياء أليس كذلك ؟

كلا . فى الحقيقة لقد هربت من المعتقل ، ألم تسمعوا عن شخص اسمه صلاح الأنور قد هرب من المعتقل ؟

وصار الشاويش يتأمله كمجنون ، وكان لم يسمع بهذه القصة :

– هربت من المعتقل ؟

– نعم .

وهو يشير ناحية المعتقل الذى يقع بعيدا عند الأفق :

– هذا المعتقل ؟

– نعم . معتقل طره السياسى .

– وتعرف اسمه ؟

ألم أقل لك أنا أقيم هناك .

وبدت اللعبة مسلية للشاويش :

– كنت تقيم هناك لمدة وهربت .

– هذا صحيح .

– ولماذا عدت ؟

– من الطبيعى أن أعود . أين أذهب ؟ وأين أعيش ؟

وتأمله الشاويش قليلا ، ورأى وجهه الذى أرهقه الجرح الذى ببطنه ، ورأى قذارة ملابسه ، فقد كان يرتدى جلبابا لم يغسل ، ونعلا قديما باليا ، ويبدو فى هيئة الشحاذين بالإضافة إلى تصور الشاويشية أنه مجنون ، وضرب الرجل يده فى جيبه وأخرج قطعة من النقود وأعطاها لصلاح الأنور وقال :

– اذهب يابنى . ربنا يسهل لك !

وتعجب صلاح الأنور ، وامتلأ حيرة ، ولم يدر ماذا يفعل هو يريد الدخول إلى المعتقل ليظفر ببعض الراحة من ذلك التعب الشديد الذى يشعر به ولكن (الشاويش) يرفض أن يسمح له بالدخول ، وانتحى ناحية ليفكر .

وتغيرت الوردية وجاء شاويش آخر وحدثت نفس القصة ودار نفس الحوار تقريبا ، ولكن الشاويش الجديد كان أكثر غلظة من سابقه فنهر صلاح الأنور بقسوة ورد عليه صلاح بشدة :

– إن لم تفعل ما آمرك به فسوف يعتقلونك ، حاول أن تفهم أنا معتقل هارب وأريد العودة ، ولو بلغ الرؤساء هذا فقد يؤذونك .

وفكر الشاويش قليلا :

– معتقل هارب يريد العودة إلى المعتقل !! أمر لايدخل عقلا !

– ماذا لو اتصلت بالمعتقل من هذا التليفون ؟ تطلب القائد عبد العال بك .

وعاد الشاويش للتفكير من جديد :

– عبد العال بك هو قائد المعتقل بالفعل .

وأسرع إلى التليفون واتصل بالمعتقل .

– شخص يدعى صلاح الأنور يطلب الحديث مع عبد العال بك .

وسمع الشاويش الإجابة على الطرف الآخر ، واصفر وجهه ، وألقى بالسماعة ، ونادى بأعلى صوته يجمع الجند ، وهو يمسك بصلاح الأنور المسكين !

– حرس سلاح .

واجتمع الجند من كل حدب وصوب ، وأمسكوا بصلاح الأنور وطرحوه أرضا وهو جريح ينزف ونسوا أنه قد جاء بنفسه .

وماهى إلا ساعة وكانت سيارة تقطع الطريق وهى ترفع عويلها ، ومن خلفها سيارة أخرى بها صلاح الأنور وقد قيدت يداه ورجلاه بالحديد وبجواره عبد العال سلومة يسبه سبا قبيحا :

– ياابن الكلب . ظننت أننا لانمسك بك ؟ عيوننا يقظة ، ونحن نهيمن على البلد .

– ياسيدى القائد لقد جئت بنفسى إلى المعتقل .

وتتوالى عليه اللكمات والرفسات من الجند الذين يمسكون به فى العربة التى يقودها عبد العال بك بنفسه .

وأمام حسن طلعت مدير المباحث العامة ، وأحد حماة حمى الزعيم وقف صلاح أنور يحكى له حكايته وحسن طلعت يقاطعه :

– أريد أن أعرف لماذا هربت ؟

– حتى أقف أمامك وأعرض عليك مشكلة الإخوان المسلمين .

وبصوت كالرعد يرد عليه حسن طلعت :

– لايوجد شىء اسمه الإخوان .

ويرد عليه صلاح الأنور وهو يبلع ريقه :

– أقصد مشكلة المعتقلين .

– ياسيادة مدير المباحث كل من فى المعتقل مظلوم ويستحق الرحمة من هذا الحبس الطويل ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، وهو يسهل مهمة العدو فى القضاء علينا .

– اسكت ياكلب . هل جئت لتلقى علينا موعظة ؟ أنتم سبب هزيمتنا أمام اليهود .

أنتم الذين صنعتم النكسة ، شغلتم بال الحكومة ، وأزعجتم الرئيس .

– نحن ياسيدى المدير ؟

– اسكت . هيا خذوه إلى المعتقل .

ويسرعون بجره إلى الخارج ، ومإإن يقتربوا من الباب حتى يستوقفهم المدير :

– انتظروا ، ماذا قلت عن اسمك ؟

– اسمى صلاح الدين عبد الخالق الأنور .

– سيكون اسمك بين المفرج عنهم فى الكشف القادم .

ويسأله صلاح الأنور فى فرحة :

– ومتى يكون ذلك ياسيادة المدير ؟

– هذا فى علم الغيب . هيا .

اشتدت الوطأة على المعتقلين بعد هرب صلاح الأنور وعودته ثانية ، وأسرفوا فى تفتيش الأطعمة التى تأتى فى الزيارات ، ومنع الرسائل الواردة والصادرة ، وتفتيش العنابر بحثا عن الممنوعات ، وكانت كثيرة ، فالممنوع فى المعتقلات والسجون شىء غير محدود ولا واضح ويمكن أن يندرج تحته أى شىء ، نعم أى شىء حتى الملابس ، ولايتبقى بعد أخذ الممنوعات غير البطانية الصوف ، والرداء الذى نرتديه ، والذى أخذناه عهدة من الدولة المضيفة ، وزاد الضيق والكرب بالناس ، وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ، وابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا .

ولم يكن هناك مانهرع إليه فى هذه المدلهمات غير الصلاة وقراءة القرآن .

وكان عبد العال مايكاد يصدق أن تأتيه إشارة يسيرة من المباحث حتى يعيث فى المعتقل فسادا ، وكما قلت كانت له أساليبه وطرقه التى يضيق بها على الناس ويغيظهم ولو استطاع لقتلهم كما فعل فى مذبحة طرة عام ١٩٥٧ ، وقد فعلها ثانية فى طرة .

كان هناك أخ كريم من المسجونين الذين قضوا عشر سنين دون تأييد للحكومة فى سجون مصر المختلفة ، وكما قلت هى طبقة من الطبقات ، أو هو باللغة الحديثة « كادر » إسلامى له أهميته الحركية الفائقة ، فهؤلاء هم الذين صمدوا أمام كافة وسائل الضغط الذى وصل إلى درجة القتل ، ورغم هذا لم يوقعوا ورقة ولو من الناحية الشكلية ، فقد كان صمودهم عظيما ، وكانوا يخيفون الحكومة بالفعل ، ولم يكونوا فى درجة ثقافية واحدة فمنهم الأمى الذى لايقرأ ولايكتب ، ومنهم أستاذ الجامعة ، ولكنهم جميعا مؤمنون مسلمون ، أخذوا على أنفسهم واجبا واحدا محددا وهو الصمود أمام كافة ماتصنعه الحكومة لتبقى جماعة الإخوان المسلمين ، وقد نجحوا فى ذلك إلى حد كبير ، وعندما دارت الأيام دورتها ، وبقى على حاله من بقى ، وتطرف من تطرف وزاد فى عداوته لعبد الناصر فهو سبب كل مصيبة ، وهناك ذلك الأخ الكريم الذى فقد عقله فى هذه الدياجى التى لاأول لها ولا آخر ذلك هو الأخ (س . ب) .

صار يظن أن الناس جميعا قد خانوا الأمانة وضيعوا عهد الله وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم ومن ثم لابد لهم أن يموتوا ، فهو يأتى بالأدوية السامة ثم يطحنها ويضعها للناس فى الطعام ، وكثرت حالات القىء والإسهال ، وعرف كل المسجونين بهذه القصة بعد أن ذهب البعض ضحية لهذا ، ومضت أيام السجن وجاءت أيام المعتقل وجاءوا بالأخ (س . ب) والكل يعرف سره والإدارة كذلك ، ووضعوه مع الناس ، ولم يكن الأمر فى أوله يخيف ،

فليس هناك مايمكن أن يحصل عليه ، ليس هناك شيء على الإطلاق ، ثم تطورت الأمور وانفتح المعتقل على الزيارات وكثرت الممنوعات ، ومن هنا ظهر خطر هذا الأخ المسكين واستفحل ، فهو يستطيع الحصول على مايريد من أدوية وسموم ، والمكان مفتوح ولاحراسة على أحد ، وطلب العقلاء من قائد المعتقل أن يعزل ذلك الأخ خوفا من خطره فقال باستهانة :

– ولماذا لاتنتبهون وتأخذون حذركم .

وكنا نقيم عليه نوبات للحراسة حتى لايدس سما فى طعام لأحد من الناس ، وكان البعض يظن أنها مبالغة ، فالرجل ودود حلو المعشر والكلام ، ولاتبدو عليه علامات الجنون ، ولكن من يعرفه يؤكد ذلك ومن عاشوا معه فى السجن قبل المعتقل أكدوا لنا أن هناك من مات بسببه ، وهو غير مسئول عما يفعله فقد ذهب عقله ، ومن ثم فهو معذور .

ووطدت علاقتى به أنا والمهندس أحمد أسامة الهضيبى ، واستراح إلينا ، وقص علينا مايرى من آراء ، وكيف خان الجميع وغدروا ، وصرح لنا أن علينا واجبا مقدسا لامندوحة من أدائه وهو تطهير الأرض من هذه الأرجاس التى تشوه وجهها .

وقلت له لأسبر غوره :

– ولكن . لعل الإخوان المسلمين يختلفون عن غيرهم ؟

وقال فى صوت كالفحيح :

– هؤلاء كانت فى أيديهم الفرصة كاملة للقضاء على عبد الناصر وضيعوها بحجة أنهم لايريدون إراقة دماء ، انظر كم من دماء أريقت فى هذا السبيل ، لو كانوا قد تخلصوا من عبد الناصر لتغير حال مصر والعرب والمسلمين . هؤلاء هم أئمة الكفر ويجب أن نبدأ بهم .

وتظاهرنا بالاقتناع وقال له المهندس أحمد اسامة الهضيبى :

– ولكنهم جميعا يشكون فى أنك تضع السم لهم ، ومن ثم فهم يحذرونك .

وبدت عليه الحيرة :

– ومالعمل ؟

فقلت له :

– الرأى أن ترسم أنت لنا الخطة ونقوم نحن على تنفيذها .

وبدا عليه الاقتناع الكامل :

– هذا كلام معقول جدا .

وكان يأتينا بدواء مسحوق لاندرى كنهه فنعدمه ، ونخبره أننا قد وضعنا السم لفلان ، وتمضى الأيام ويسألنا :

– لم يمت الرجل .

وأكدنا له أننا وضعنا له المسحوق ولانفهم تفسيرا لعدم موته ، ويعطينا من جديد ، ونفس الإجابة ، وأذهب إلى القائد عبد العال واسأله باسم الإنسانية أن يعزل ذلك الأخ المسكين الذى ذهب عقله ، ويضحك عبد العال سلومة ويقول بوضوح :

– وجوده يثير الذعر بين الناس ، ولعلنا نستفيد منه يوما ما .

وأعجب ، هل إلى هذا الحد تجرد الرجل من كل مشاعر الرحمة .

وكان الأخ (س . ب) شديد الذكاء فبدأ يشك فينا فقلت له :

– انهم يستخدمون السحر فى التخلص من السم .

وأصر وقال :

– سوف أفعل بنفسى مافشلتم فيه .

وصار يعد الطعام الجيد الفاخر ويضع فيه مايصل إليه من سموم ، وكان يدبر موت الشيخ محمد عبد الفتاح عارف ، فكان يصنع الطعام الشهى ونحذره بلا فائدة ، وفى ليلة بات يتقيأ طوال الليل وعمل له غسيل لمعدته ونجا من الموت .

وجاء الأخ أحمد نصير عليه رحمة الله يخبرنى أنه يسعى إليه ليدعوه إلى طعامه ويسألنى الرأى وقلت له :

– وهل هناك رأى ؟ لاتذهب .

– أنتم تبالغون فى الأمر . الرجل طيب ومسكين .

– هو طيب ومسكين ولكن عقله قد ذهب ، وهو يعمل على موت الجميع .

– سوف أذهب إلى طعامه .

وقلت له محذرا :

– لاتفعل أرجوك .

وذهب المرحوم أحمد نصير إلى طعام الأخ (س . ب) وتناوله ، وهناك من قال إنهم رأوه يتردد على عبد العال سلومة ، وماأسهل إغراء مجنون وساءت أحوال أحمد نصير ، ولم يفهم أحد ماذا أصابه ، وعجز الأطباء فى التشخيص ، ونقل إلى القصر العينى حيث المعتقل الذى هناك ، وقال من كان معه :

– عندما حانت منيته قال : لقد وضعوا لى السم ، فعلها عبد العال سلومة ، ولما سألوه كيف قال لهم :

– انصتوا هل تسمعون الأذان ؟ رددوا معى . الله أكبر الله أكبر .. وظل يردد الأذان الذى لايسمعه سواه حتى فاضت روحه !

وجاء الخبر إلى المعتقل وأقيم المأتم . وكان (س . ب) يضحك فى جنون ، ويقذف بأشيائه هنا وهناك وهو يصرخ بأعلى صوته .

– قد نجحت . الحمد لله .

وصار يقولها حتى انهار من التعب مغشيا عليه .

صدقت جميع نبوءات محمد قطب عما تفعله الصهيونية وأمريكا بالعالم ، والعالم الإسلامى بوجه خاص ، كان يحكى لنا مايكون

ونحن فى أبى زعبل ، وجئنا إلى طرة فوجدنا ماكان يقوله صحيحا ، وحكى لنا فى طرة ، ماوجدناه حقيقيا بعد ذلك ، وكأن الرجل كان يقرأ من كتاب مفتوح .

وكان فكره متشعبا له آراء كلية فى الكون والحياة والإنسان ، وتفسيرات تفصيلية لكل مايحدث من تحركات سياسية ترسمها أمريكا ووكالة الاستخبارات المركزية لينفذها الفراعين الصغار ، فيحتفظون بكراسيهم ، وينفذون إرادة من يحمونهم ويحرسونهم ، ثم يستغنون عنهم ويقذفون بهم فى غياهب النسيان أو المجهول ، وكان يقول : أمريكا هى التى تحكم العالم ، وإسرائيل تحكم أمريكا واليهود هم الذين يحركون القوى فى الاتجاه الذى يريدون ، وتفصيلات مخططاتهم لايفهمها سواهم ، ولاملجأ من هذا كله يكون إلا بالرجوع إلى الإسلام من جديد ، وأن تتجرد فى قولة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، عندها يشرق فجر جديد ، ونبصر آفاقا رحيبة ، ويكون لنا مكان فى عالم الأقوياء ، ونحظى بنصر الله ، ونتبوأ المكانة التى نستحقها كمسلمين .

والحديث عن مهرجان الحرية والاعتقال فى معتقل طرة السياسى طويل لاينتهى ، كيف تكونت الأفكار والتيارات الجديدة ، وكيف كان الضغط والإرهاب سببا فى توجيه بعض العقول إلى منزلقات التطرف ونتائجه ، ولكن لامناص من الانتهاء من الحديث عن معتقل طرة السياسى .